إجابة جريئة

للّه.. والحرية

أيمن مسعود

obeikan.com

إجابة جريئة: أعمال فكرية

الكاتب: أيمن مسعود

تصميم غلاف: مصطفى أبومسلم

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٨٣٨١

الترقيم الدولي: ٥ - ٤٣ - ٦٥٩٨ - ٩٧١ - ٩١٣

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

مدير النشر: أحمد خطاب

إشراف عام: أحمد عبدالجواد

obeikan.com

الإهداء

إلى الراحل المحترم خالد محمد خالد الذي ألهمني من عنوان كتابه: "لله والحرية"

وإلى مفكرين كبار فى تاريخ هذه الأمة

وإلى أمي التي بخلت أن تسترد مني بعض ما أعطت

وإلى كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

obeikan.com

obeikan.com

المحتويات

الإهداء ٣

المحتويات ٥

تمهيد ٧

لي وللمسلمين.. ربي الله..... ١٣

لي وللمسلمين.. يا أيها... ..... ٢٥

القرآن وما دونه ٣٩

لغير المسلمين.. تمهيد..... ٥١

لماذا نحمد الله على نعمة الإسلام؟ ٥٣

هل القرآن كلام الله؟..... ٦١

الإسلام والإرهاب..... ٩٣

الإسلام والجنس..... ١٠٧

الإسلام والرق..... ١٣٩

خاتمة..... ١٥١

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد

لماذا هذا الكتاب؟

حدث في زمن من الأزمان أن دينًا قام على أكتاف فرد -كما هي العادة مع الأديان- واعتنقه أفراد قلائل، ثم اتسعت الدائرة إلى العشرات، فالمئات، فالألوف، فالملايين، فمئات الملايين... ولا يزال هذا الدين قائمًا، إلا أنه حُبِسَ في دائرة الإساءة من أبنائه وأعدائه، ودُعيَ باسمه إلى ما حاربه، واتُّهِمَ بما عاداه، إلى أن وصل الأمر به إلى اختراع مسميات توضيحية له: سني، سلفي، شيعي، وهابي، وسطي...، رغم أنه أوضح ذاته بذاته، مستغنيًا عن كل هذا، وهو ما سنوضحه في هذا التمهيد في عجالة، على أن نعود إليه مستفيضين في المواضع التي ستوجب ذلك.

زعموا -وربما يكون زعمهم حقيقة- أن واحدًا من أئمة أهل السنة الكبار كان على موعد مع مناظرة مع الشيعة، ولكنه حضر متأخرًا، ودخل المسجد وحذاؤه تحت إبطه، فتعجب علماء الشيعة وسألوه عن ذلك، فقال إنه سمع أن الشيعة على أيام رسول الله كانوا يسرقون الأحذية، فردوا عليه بأنه لم يكن هناك شيعة على أيام رسول الله، فقال لهم: إذن انتهت المناظرة؛ من أين أتيتم بدينكم؟

ولهذه القصة وجاهة من زوايا كثيرة، وهي ممتعة في بنائها الدرامي وسياقها المدهش الذي يفاجئ المتلقي بحجة بعيدة عن الذهن، ولكنها تطرح -في نفس

الوقت- إشكالية عقلية وفلسفية كبرى: ألا ينطبق هذا السؤال أيضًا على السلفيين؟ هل كان على أيام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سلفيون؟ وهل كان هناك صوفيون؟ وهل كان هناك أشاعرة أو أحناف أو حنابلة أو مالكية أو شافعية...؟ هل كان على أيام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا مسلمون؟!!

هل يعني هذا أني أتهم المنتمين إلى هذه الاتجاهات بالفكرية بالخروج عن الإسلام؟ حاشا لله؛ كل ما أراه أن السلف الصالح -رضوان الله عليهم- اجتهدوا واختلفوا فيما بينهم في العديد من الأمور، والأئمة كذلك، وأعلام الصوفية... لم يزعم واحد منهم أنه صاحب الفهم الوحيد الصحيح، وإنما آمنوا بأن كلاً يؤخذ منه ويُردّ عليه إلا النبي -صلى الله عليه وسلم-.. آمنوا بمعناها وإن كانت منسوبة لفظًا إلى الإمام مالك، وكان تطبيقها كان حاضرًا في كل فتاواهم واجتهاداتهم وآرائهم...

إن كل ما تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من اجتهادات وآراء وتفسيرات... إنما هو جهد بشري؛ ليس له قداسة، ولكن له احترام وتقدير بحسب الجهد العلمي المبذول فيه، وكم كان في التاريخ الإسلامي من مجهودات عبقرية فذة قام بها رجال على أعلى درجات التمكن العلمي، غير أن واحدًا منهم لم يَدَّعِ أن رأيه هو الرأي الوحيد أو أن جهده هو طريق الله أو أنه وصل إلى مقصد الله -سبحانه وتعالى-.

ورغم هذا فإن الإسلام لم تصل دعوته سالمة عبر العصور، حيث ازدحم التاريخ الإسلامي بالدِّبَبَةِ التي قتلت صاحبها من حيث ظنت أنها تخدمه.. وبالحاقدين الذين امتلأت قلوبهم غلاً ضده، وبهذا فإن الإسلام لم يَسْلَمْ -عبر تاريخه- من الاضطهاد، سواء من أعدائه الحاقدين أو من أتباعه الدِّبَبَة!

وقد وضعت هذا الكتاب لغاية أولى، وهي مناقشة الاتهامات التي توجه إلى الإسلام من غير أبنائه، وأنا أعني هنا المناقشة وليس الرد، ففي الرد يبدو الموقف عدائيًّا أكثر، في حين أن الأمر القاطع في مثل هذه الحالة هو: "وجادلهم بالتي هي أحسن"، والغاية الثانية، إنما هي من لوازم الغاية الأولى، ولهذا سنبدأ بها هذا الكتاب، وهي مناقشة التيارات التي تشددت باسم الإسلام، فكررت كل خطايا أتباع الديانات السابقة، ولا أقول الديانات السابقة، فالكلام هنا عن الأتباع وليس الدين، وكأنها تنفذ تعاليم أو وصايا كتاب آخر!!

على فترات كثيرة تثور أسئلة واتهامات وشبهات موجهة للدين الإسلامي، وهناك غالبية من المسلمين تهرب من مثل هذه المواقف خوفًا من أن تواجه ما لا تستطيع تحمله، في غياب لدور المؤسسات التي من المفترض أن تقوم هي بمثل هذه الحوارات والمجادلات والمناقشات!! وفي هذه المساحة من التردد يقوم كثير من المتحدثين باسم الإسلام عبر المواقع الإلكترونية ومنافذ التواصل المختلفة بأكبر دعاية سلبية ممكنة لهذا الدين، بحيث تكفي جولة قصيرة في هذه المنافذ حتى يتبين لك الإسلام شيئًا مشوبًا بالجنس والدموية والانعزال...

بدفاع هؤلاء عن نصوص وتفسيرات واجتهادات تراثية، جعلوها أهم من الدين ذاته!!

وقد يبدو ما أقوله دفاعًا عن هؤلاء المهاجمين للإسلام، باعتبار أن ما يدّعونه موجود في التراث الإسلامي، والحق أني لا أستطيع أن أنكر ذلك، لكني لا أثبته أيضًا، فالجريمة –ازدراء الإسلام– مشتركة بين الطرفين، وإن كان موقف الطرف غير المسلم منطقيًّا، فهو يبحث عما يدعم قناعاته ضد الإسلام، حتى وإن اشتملت مناهجهم البحثية على الكثير من الخلل، فهم يفتشون فقط عن السلبيات ولا يبدو البحث عن الحقيقة شاغلهم الأكبر، مع وجود استثناءات بالضرورة، غير أن كل هذا لا يقلل من جريمة المسيئين للإسلام من داخله، الذين شغلوا الناس عبر الفضائيات بالإجابة عن أسئلة جنسية، وتبريرات واهية للشبهات المتعلقة بالإسلام، وربط الإسلام بالمستجدات العلمية، سعيًا منهم لإثبات ألوان شتى من إعجاز القرآن!

لن أكون مجاوزًا للحقيقة إن قلت إني أرجو أن تكون هذه الأوراق فاتحة نقاش وليست خاتمة، ولست حالمًا للدرجة التي أتوقع فيها أن نصل إلى المجتمع المتسامح بمجرد كتاب يصدر في لحظة تاريخية، لكن كل ما أَحْذَرُه ولا أجد سبيلاً إلى تحاشيه هو الكشف عن النيات الذي سيحدث من كثيرين، وأقول هذا نقلاً من الواقع، وليس كشفًا عن المستقبل أو الغيب، ولهذا فأنا أكتفي

بالله تعالى الذي قال في كتابه العزيز: "يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩"[١]

obeikan.com

[١] الآية ١٩ من سورة غافر

obeikan.com

لي وللمسلمين.. ربي الله

ليس هناك أي خلاف بين المسلمين في أية لحظة تاريخية على الإقرار بربوبية الله –سبحانه وتعالى–، وعلى أن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى إلى رسوله –صلى الله عليه وسلم–، وهو النص قطعي الثبوت الذي لم يدخله تحريف أو تغيير عبر العصور، والذي حفظه الله –سبحانه وتعالى–، ولا يزعم أحد أن كتب الحديث –على أهميتها وقيمتها– مُنَزَّلَةٌ من الله –سبحانه وتعالى–، وإنما هي روايات آحاد/ أفراد –باستثناء القليل المتواتر، نقل أصحابها الكرام ما صدقوا أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قاله، ثم اجتهد الفقهاء والمفسرون في تفسير وتأويل ما وصل إليهم من هذه الكتب... هذه هي الحياة العلمية الدينية التي أفرزتها الثقافة الإسلامية، ولا أعتقد أن هناك خلافًا على السطور السابقة، إلا أن أفق توقعات القارئ وأفكاره المسبقة هي ما ستجعله يتوجس خيفة من هذا المدخل، وسيكون السؤال: إلامَ ترمي؟ هو السؤال الأوضح في الأذهان!! هل ستنكر السنة النبوية؟ هل ستقلل من جهد الأئمة وتهمشه؟ هل ستطالبنا بالاجتهاد كما اجتهدوا؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا حصر لها، والتي يسمي حدوثَها في هذا السياق نقادُ نظرية القراءة والتلقي "أفق التوقعات"، نعم إن التوقعات هي ما تربكنا وقت إجابة أي سؤال، والخوف من تغيير القناعات التي تربينا عليها هو ما يقودنا إلى التمسك بما وجدنا عليه آباءنا، رغم أن القرآن الكريم حين رصد

هذا الرد، رصده على سبيل الإدانة والإنكار: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾[1].

ومعاذ الله أن ألمح إلى مساواة آبائنا العلماء بهؤلاء الآباء الذين ذكرهم القرآن، لكنني أرصد المنطق القرآني الذي أدان وأنكر الاتباع أو الطاعة المطلقة إلا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فهو الوحيد الذي أُمرنا بطاعته، وكانت سنته –الصحيحة– مصدرًا من مصادر التشريع في الدين الإسلامي، أما ما عداه –صلى الله عليه وسلم– فمقولاتهم جميعًا شديدة الوضوح في هذا الشأن، فلم يصح عن واحد منهم زعمٌ بأن كلامه لا يقبل المناقشة أو زعمٌ بأنه يقول الحق، بل إن مجمل أقوالهم كانت نابعة من إيمانهم وفهمهم، وهذا ما يبرر اختلافاتهم التي وُصفت بالرحمة، إذ دلت على أمر خطير، للأسف لم ينتبه له كثير من الأتباع!!

لماذا اختلف الفقهاء والمفسرون رغم قربهم الزماني والمكاني بل والمعاصرة في كثير من الأحيان؟ وهل كانوا بدعة في هذا الأمر على جيل الصحابة؟ وليكون السؤال أكثر وضوحًا: هل اختلف الصحابة –رضوان الله عليهم– في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم– أو بعده؟ الإجابة أن الفقهاء لم يكونوا

---

١ الآية ٢١ من سورة لقمان

بدعة في هذ الأمر على جيل الصحابة، فقد اختلف الصحابة -رضوان الله عليهم- بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بل وفي حياته أيضًا!! نعم، لم يكن الخلاف جريمة، و لم يكن داعيًا إلى الشقاق والوقيعة بين المختلفين؛ ذلك أن واحدًا منهم لا يتجاوز القول إلى التفتيش في النية، فحين أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمرًا واضحًا: "لا يصلين أحدكم العصر إلى في بني قريظة"[1]، ثم حضرت صلاة العصر في الطريق، فنشأ خلاف بين فريقين: واحد يرى الالتزام الحرفي بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يُصلِّ إلا هناك، وآخر يرى أن الأمر كان بغرض الحث على الإسراع، فصلى حين حضرت الصلاة.. أتعلمون ماذا أنتج هذا الخلاف في الفهم والتفسير؟ أنتج ابتسامة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأقر الطرفين على اجتهادهما!

إذن فمن الواضح أن الإسلام رغم أنه جاء حادًّا وقاطعًا وملزمًا فيما يتعلق بمفهوم التوحيد والإقرار بربوبية الله -سبحانه وتعالى- وإخلاص العبادة له وحده، إلى جانب مقاصد المعاملات الاجتماعية والإنسانية، فإنه مع ذلك جاء متسعًا ورحبًا فيما يتعلق بالتفسير والاجتهاد والتأويل بحسب المصالح المتباينة للمجتمعات، وهو ما أسس لوجود ما يسمى بمدرسة النقل الملتزمة

---

[1] رواه البخاري

بالنص، ومدرسة العقل المتجاوزة إلى المقصد، وفي كل مدرسة من المدرستين آراء وتباينات واجتهادات كثيرة وكبيرة!

المقصد إذن بعد هذا الرصد أن نصل إلى إجابة على سؤال شديد الأهمية: ما الإسلام؟

لا أبحث هنا عن الإجابة الأكاديمية العلمية عن الإسلام بوصفه دينًا، ولكني أبحث عن: ما الذي يُحْتَجُّ به على الإسلام؟ قال الله تعالى: "ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا"[1].. وبغض النظر عن موقع هذه الآية في ترتيب نزول السور والآيات، فإن النص قاطع الدلالة على أن الدين أصبح كاملاً في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكل ما جاء بعده لا يُحتج به على الإسلام، بل الإسلام حجة عليه وعلى غيره.. فاجتهادات العلماء والفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم حتى من الأشخاص العاديين، لا بد أن توافق الإسلام، وإلا خرجت عنه، ولا يجوز أن نقول إن الإسلام يقول كذا، ثم نسرد أقوال البشر بعد هذا القول، إلا النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل الواجب أن نقول إن فلانًا يقول كذا، وقوله موافق لما جاء في كذا أو كذا أو كذا من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وحتى لا أكون مضطرًّا في كل مرة إلى ذكر كلمة الصحيحة

---

١ من الآية ٣ من سورة المائدة

وصفًا لكلمة السنة، فإني أقصد بها -وبشكل واضح- السنة التي لا تخالف القرآن، حتى وإن كان سندها قويًّا بحسب علماء الحديث الأفاضل، فلا يمكن أن يناقض الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما جاء به الوحي من الله أو يَتَقَوَّلُ عليه شيئًا يخالف النص الأصلي:"وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾"[1].

نقطة أخرى في غاية الأهمية يسقط فيها كثير من المسلمين -مع الأسف-، وهي الاستشهاد بآيات القرآن الكريم إما في غير سياقها، وإما مجتزأة من النص، وإما بفهم مختلف عما تقصد إليه، ولست أدعي الإلهام أو النبوغ أو الانتباه إلى ما لم ينتبه له الأقدمون.. لست أدعي هذا -مع الأسف-، وأقول -مع الأسف-، لأني كنت أتمنى أن يكون ما سأذكره جديدًا على الأكاديمية العلمية الإسلامية، حتى أجد مبررًا لهؤلاء الذين خانونا في النقل، فاختاروا نيابة عنا ما يجب أن نقرأه وما لا يجب أن نقرأه، وحتى لا تكون سبة في القرن الواحد والعشرين أن نعيد نقاشات أُغلقت في القرن الرابع أو الخامس على أبعد تقدير!!

---

١ الآيات من سورة الحاقة

مَنْ مِنَ الشيوخ لم يذكر على المنبر ما معناه أن تقصيرنا يمنعنا من التغيير وأنه إذا أردنا أن يغيرنا الله، فإن علينا أن نتغير أولاً، حتى نليق بهذا التغيير، ثم يقول بكل وضوح: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وفي الحقيقة هم أنفسهم الذين يقولون دائمًا: لا تقتطعوا الآيات من سياقها، ولا تكونوا كالذين يقولون: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة"، وهم أنفسهم اقتطعوا من السياق، واختاروا الثلث الأوسط من الآية، يقول الله تعالى:"لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١"[1]، أليس السياق في الآية سياق حفظ بالإضافة على التذكير بالنعمة، بأن الله وهو لا مرد له في حكمه لم يرد بالقوم سوءًا؟! دعني أنقل الصدمة التي نقلها الإمام الرازي في تفسيره مفاتح الغيب، حيث يقول في تفسير هذه الآية: "فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد"، وهو الكلام الموافق في المعنى لقول الله تعالى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣"[2]

---

١ الآيات من سورة الرعد

٢ الآية ٥٣ من سورة الأنفال

أليس هذا الاقتطاع واختيار توجيه واحد للمعنى واستبعاد الرأي الآخر خيانة للنص؟ ففي الوقت الذي يطمئن الله عباده بأنه يحفظهم وليس هناك من يقدر على ضُرهم ما دام هو الحافظ، تجد المنابر تصرخ بأن الله تعالى لن يُصلح حالكم إلا إذا صلحتم!! وهي بالطبع دعوة تبدو السياسة ناضحة منها، أليسوا هم أنفسهم من يقولون: "إذا أردت أن يحكمك عمر، فكن عليًّا"؟!! يا سيدي نعم، إن من أنبل الغايات وأشرفها أن تكون عليًّا أو أحد الصحابة على مستوى التشبيه طبعًا، لكن الحاكم مأمور أن يكون عمر حتى لو كانت الرعية كلها أبا لهب!! إنها خيانة للنص، وقع فيها من وقع عن قلة اطلاع ووقع فيها آخرون قصدًا واختيارًا ومنهاجًا!!

والكلام هنا عن الأتباع وليس عن الأئمة، وليس في هذا محاباة للأئمة، فلم يتركوا فرصة لمحاباتهم بعد وفاتهم، فقد أقروا الخلاف والاجتهاد، وشجعوا عليه، وبحثوا عن الحق في كل قول، وحتى لما وثقوا برأيهم قالوا -ولو ضمنًا- ما قاله الإمام الشافعي: "قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب"، وهذا الإمام مالك يرفض تعميم كتابه الموطأ على الأمصار وقتها، معللاً ذلك بأن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد تفرقوا في البلاد واختلفوا في الفروع، أي إجماع نتحدث عنه إذن تحت سقف هذه الجملة الواضحة؟ عن أي مَجمع مقدس نتحدث؟ هل عن اجتهادات بشر؟ لا أظن أن ادعاء الإجماع كحجة من حجج التشريع كان في وعي من أجمعوا في

الأساس!! هل اجتمع هؤلاء "الْمُجْمِعُون" ليتناقشوا فيما وصلوا إليه، أم كان إجماعهم بالصدفة؟ وما العدد الذي يتحقق عنده الإجماع؟ ومن هم؟

إن كثيرًا من المصطلحات التي تتردد في جنبات الدرس الديني تؤدي إلى أثرٍ اجتماعيّ غير مقصود في قاعات الدرس، إلا أنه يُستخدم بسوء نية في بعض الأحيان، فحين تقول "إجماع العلماء"، وأنت تقصد إجماع الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، فلم لا تقول: "إجماع الأئمة الأربعة"؟! وحين تقول "حديث متفق عليه"، وأنت تقصد اتفاق الشيخين: البخاري ومسلم، فلم لا تكتفي بقول: "رواه البخاري ومسلم"؟!

تحمل هذه المصطلحات -حتى ولو دون قصد- ضغطًا فكريًّا على المتلقي، إذ تشكل حاجزًا أمام مساحات تفكير الشخص العادي، ولن أبالغ إذا قلت حتى على المتخصصين وأصحاب الدرجات العلمية، فمن أنا لأفكر فيما أجمع عليه علماء الأمة؟ ومن أنا حتى أجتهد فيما اتفقوا عليه؟

هل هناك أكبر من اجتهاد الصحابة بعد قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة"؟ ما الذي دفعهم إلى التفكير في النص سوى كل آيات التدبر والتعقل والتفكر المنتشرة في سياقات القرآن المتعددة؟!! وما تلك المساحة التي دفعت الحباب بن المنذر -رضي الله عنه- أن يقترح على النبي -صلى الله عليه وسلم- تغيير مكان معسكر المسلمين ونقله إلى قرب بئر بدر، بعد أن أمر الرسول بإقامة المعسكر في أدنى ماء قرب بئر بدر؟! ولكن انظروا إلى أدبه -رضي الله عنه- وهو يقول للنبي -صلى الله

عليه وسلم-: "يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟"، قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: «يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون»[1]، فأخذ الرسول برأيه!!

ثم يقولون: إنها الطاعة العمياء، كلا أيها السادة، ليس في الإسلام طاعة عمياء، إن الطاعة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- طاعة مبصرة وذكية وعملاقة، إنها طاعة لا يؤديها إلا هؤلاء المفكرون، وهي كبيرة إلا عليهم، ولم يقل الإسلام يومًا: "لا تجادل ولا تناقش يا أخ علي"[2] إلا في الدراما وعلى لسان غير العلماء الذين يخشون من الأسئلة أن تفضحهم، فيأمرون تلاميذهم بالطاعة العمياء!

لم يهدف الإسلام يومًا إلى خلق سجن يدخل إليه المسلم، بل خلق رحابة فكرية متغيرة بحسب العصر والمتغيرات الحادثة، ولن أبالغ فأقول إن كل الأئمة الكبار في التاريخ الإسلامي فهموا هذا وعبروا عنه، وإن كنت أعتقد في هذا الرأي، ولكنني سأكتفي بالقول: إن كثيرين من علماء المسلمين فهموا

---

[1] تاريخ الطبري

[2] من فيلم الإرهابي: تأليف لينين الرملي وإخراج نادر جلال

هذا وانطلقوا من وعيهم به، فيما نصطلح عليه الآن بمصطلح "فقه الواقع"، وهو الذي عبر عنه الإمام ابن القيم بقوله: من أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم، وأمكنتهم وقرائن أحوالهم، فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدِّين أعظم من جناية من تطبب للناس كلهم على اختلاف بلادهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وطبائعهم؛ بما في كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل والمفتي الجاهل أضر على أديان الناس، وأبدانهم"[1].

وابن القيم ذاته –رحمه الله– بهذا الرأي ألا يتبرأ من ناقلي فتاواه في عصرنا دون عرضها على الواقع؟ أليس المتكلمون بما قاله الإمام ابن القيم في عصرنا دون أن يأخذوا مما أخذ هو منه ويعرضوه على الواقع يكونون أَضَرَّ على ديننا مطلقًا في هذه اللحظة التي يفتون فيها بفتاوى تسيء إلى الإسلام، وتُصوِّره في صورة الإرهاب والعداء للآخر وترويج الكراهية؟ انظروا إلى الوضع السياسي الذي عاصره الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم، وكيف شهدا اضطرابات وحروبًا وصراعات كادت تتخطف الأمة الإسلامية وتنهشها، ولهذا فقد وضح في فتاواهما رد الفعل على الأخطار التي تهدد الدولة والمجتمع، أما نقلها في هذه اللحظة، فإنه مما لا يرضى به ابن تيمية وابن القيم –رحمهما الله–،

---

[1] إعلام المُوَقِّعِين عن رب العالمين

واستنتاجي مبني على النص السابق لابن القيم، وليس تفتيشًا في نية الشيخين الجليلين!

إن لكل مجتهد عبر تاريخ الإسلام دورًا مهمًّا ومكانة عظيمة أُجلّها وأُقدّرها، إلا أنني لا أرى أي قول لأي مجتهد حجة على الإسلام.. لا يمثل الإسلامَ إلا قرآنُه ورسولُه، وكل ما بعد ذلك يُؤخذُ منه ويُردّ عليه، وهذا ليس تقليلاً لمجهودات المجتهدين، بل هو تقديس للوحي الذي تمثل فيما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ونقله لنا قرآنا كريمًا وسُنّة مطهرة، لعلنا بذلك نكون أقرب إلى الإيمان الحقيقي بالله ربًّا لا شريك له، فننجو من أن تقول لشخص: "قال الله..."، فيقول لك: "قال فلان..."، وهذا يحدث كثيرًا للأسف في المناقشات التي يرددها الكثيرون!

اللهم إني أشهد ألا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا نبيك ورسولك.

obeikan.com

لي وللمسلمين.. يا أيها...

يبدو العنوان غريبًا بعض الشي! من تنادي في هذا الجزء؟ إنني أنادي الذين ناداهم الله -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم، وهم الناس، الذين آمنوا، أهل الكتاب، المجرمون، الضالون، الإنسان، الكافرون... وهكذا لم يستثنِ الله فئة من الخلق لم يوجه لها خطابًا في قرآنه الكريم.. وليس مستغربًا بالضرورة أن يكون النداء الغالب الأعم في القرآن موجهًا للمؤمنين، ثم للناس عامة، ذلك أنه كتاب يقوم سلوكياتهم ويعلمهم الحياة، وتأتي بقية الفئات في سياق جدل أو حوار ما!

من الضرورة بمكان أن نشير هنا إلى أن في القرآن قدرًا ليس قليلاً من النداء الموجه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، آمرًا إياه بالتبليغ والإنذار والإخبار عن مراد الله -سبحانه وتعالى-، دون أية إشارة من قريب أو من بعيد أو من كوكب آخر حتى إلى وجود أقل قدر من الوساطة بين الله وعباده سوى محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو أمر يجب أن يكون محسومًا، لأنه ستنبني عليه قناعات عديدة!

ما الهدف من هذا الجزء؟ الهدف أن نتعلم كيف أرادنا الله -سبحانه وتعالى- أن نتعامل مع البشر بشكل عام، أو مع الفئات المختلفة من البشر بالشكل الأخص:

الذين آمنوا:

لعل الآية المرجعية في هذا الأمر: "إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾"[1]، ولا أظن أن علاقات المؤمنين تعتبر إشكالية في الفهم، حتى مع عدم تطبيقها، فهؤلاء الذين لا يطبقون يعون جيدًا ما هو مشروع وما هو غير مشروع في هذه العلاقات، إلا أن ما أود الإشارة إليه في هذا السياق هو حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي ربما يكفي وحده لنشر السلام في العالم لو تم تطبيقه على وجهه الأمثل: وهو ما رواه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، فأنا أحب لنفسي أن يغفر لي الناس إن أخطأت، وألا يهينوني إن كنت جاهلاً، وأن يراعوا ضعفي، وأن يُشعروني بأهميتي، وأن يحترموني... فتعليق الإيمان على هذا الشرط، إنما هو أمر في منتهى الأهمية، ينتقل بالإيمان إلى أبعد من القلب، ويوظفه من أجل إصلاح المجتمع.

أهل الكتاب:

"لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

---

١ الآية ١٠ من سورة الحجرات

وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥ "[1] ألا تُعدّ هذه الآية هي المرجع الأساس والحكم الأوضح الذي يمنحنا تعريفًا مباشرًا وواضحًا وصريحًا عن أهل الكتاب؟ هل منهم من كفر؟ نعم: "لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١"[2]، فهناك من كفر من أهل الكتاب، ولكن هناك أيضًا من آمن، وبما أن الإيمان أمر بين العبد وربه، فلا يمكن أن نتعرف إلى مؤمنهم من كافرهم، وعلى هذا فلماذا نستغني عن الصيغة التي ارتضاها الله -سبحانه وتعالى-: "أهل الكتاب"، وهم لن يخرجوا عن واحد من اثنين: إما مؤمنين، ونكون قد عاملناهم بما يليق بالمؤمنين، وقدرنا إيمانهم بالله -سبحانه وتعالى-، وإما غير مؤمنين، وحتى هؤلاء أيضًا لم يسمح لنا الله بالتجاوز معهم أو إهانتهم.

وفي هذا السياق يتوقع البعض أن نُحجم عن ذكر بعض الآيات التي تبدو بعيدة عن وجهة النظر هذه، ويستمر أفق التوقعات في التدخل، إلا أن الأمر ليس على هذا القدر من الصعوبة، فالآيات التي تتناول الولاية بشكل واضح كقول الله تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ

---

١ سورة آل عمران

٢ الآية ١ من سورة البينة

أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ "[1] إنما هي خاصة بفئة خاصة وفي سياق محدد، يتجلى واضحًا إن طرحنا السياق بالكامل: " وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾"[2]، فهؤلاء الذين يرفضون حكم الله، سواء في الإنجيل أو ما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فهم إذن أقرب إلى الكفار من أهل الكتاب، وليس المؤمنين الذين

---

١ الآية ٥١ من سورة المائدة

٢ سورة المائدة

أحل الله لنا طعامهم، وأباح الزواج منهم، ونهانا عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن، وأمرنا بالبر والقسط معهم...

وتضع قصة بني قريظة المشهورة يَدَنَا على خيط مهم من خيوط رصد التاريخ الإسلامي وتناقله، واختصار القصة أن بني قريظة خانوا العهد وأعانوا الأحزاب على القضاء على المسلمين، لولا رحمة الله بالمسلمين، ويُحكى بحسب رواية الإمام البخاري أن جبريل عليه السلام أتى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال له: "لما رجع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل ــ عليه السلام ــ فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: هاهنا وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم"، وفي موضع آخر من صحيح البخاري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يعنف واحدًا منهم" ثم حكّم فيهم سعد بن معاذ، وكان حليفًا لهم قبل الإسلام، فحكم بحسب رواية الإمام أحمد: "أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم"، وتم التنفيذ، ولكن وبحسب رواية ابن إسحاق: "ثُمَّ اسْتَنْزَلُوا، فَحَبَسَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فِي دَارِ بِنْتِ الْحَارِثِ: امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ"! وتختلف المرويات عن أعداد من قتلوا من اليهود بحسب رواية ابن إسحاق -دون سند-: "وهم

ستمائة أو سبعمائة، والمكثّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة"[1] وفي روايات أخرى: "وكانوا أربعمائة"[2]، لكن حميد بن زنجويه في كتابه الأموال روى بسنده عن ابن شهاب "فَقُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا"[3]

العدد إذن بين أربعين وتسعمائة، وجبريل عليه السلام أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالخروج، لكن الرسول أمر الصحابة بالخروج: "لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة" ولكنه خرج أيضًا، رغم أنهم اختلفوا، فمنهم من صلى ومنهم من لم يُصَلِّ، حتى ذكروا ذلك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلم يعنف أيًّا من الفريقين، ولم يُذكر بالتحديد أين أُخبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– بهذا!! ثم حبس هذا العدد بالكامل في دار بنت الحارث، ويُقال إنه قتل كل من أنبت، أي نبت له شعر العانة، ويُقال أيضًا إن من نفذ القتل هما عليّ والزبير رضي الله عنهما فقط[4]، نفذا الحكم في العدد بالكامل، وكان التنفيذ في المدينة، وليس في حصنهم، بحسب رواية ابن إسحاق السابقة، دون أن يوضح السبب!! واللافت أيضًا أن الناقلين معتمدون جميعهم على رواية ابن إسحاق، حتى رواة اليهود أنفسهم!! اليهود

---

[1] ابن هشام، مقتل بني قريظة، ٢/ ٢٤٠

[2] أحمد ، مسند جابر بن عبدالله (١٤٧٧٣) والترمذي (١٥٨٢)، والنسائي في "الكبرى" (٧٦٧٩)، والطحاوي في "شرح المعاني" ٣٢١/٤، وفي "شرح المشكل" (٣٥٧٩)، وابن حبان (٤٧٨٤) و(٦٠٨٣٣)

[3] الأموال لابن زنجويه، باب الحكم في رقاب أهل الذمة، (٤٦١)

[4] إنارة الدجى في مغازي خير الورى، مقتل بني قريظة وحيي بن أخطب، ٤٠٢/١

الذين يقلبون الدنيا رأسًا على عقب باضطهادات مزعومة فوتوا هذه المجزرة دون أن يوثقوها، ودون أن يقيموا على مقابر قتلاهم مناحات عالمية وقتها أو بعده!!

إن هذا الارتباك الملقي بظلاله على الحادثة وعلى مصدرها فيما يتعلق بأعداد القتلى وطريقة قتلهم وتفسير المقتولين بين المقاتلة والرجال، إنما يصب في جانب الشك أكثر منه في جانب الإثبات!!

إن قادة يهود بني قريظة مجرمون، وقد عاقبهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن ماذا كان العقاب الذي حدث تحديدًا؟ هل كان بقتل المتورطين في الجريمة، أم كان بقتل من لم يشتركوا في الوزر من الصبيان وحديثي البلوغ؟! ضع إلى جانب هذا مقولة الإمام أحمد بن حنبل: "ثلاثة كتب ليس لها أصول وهي: المغازي والتفسير والملاحم"[1].

الكافرون:

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾[2]

---

[1] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ج٢/ص١٦٢ للخطيب البغدادي

[2] سورة الكافرون

وفي القرآن كلام كثير عن الكافرين، باعتباره هادفًا إلى تعليم المؤمنين به معايير الإيمان، وتحذيرهم مما يكون كفرًا مخرجًا لهم عن الصراط المستقيم الذي يرسمه لأتباعه.. وهل في هذا السياق أي مصادرة لحقوق الكافرين؟ ربما أخطأ بعض من أفتى باسم الدين بوجوب الحرب على الكافرين، وأثرت الدراما العربية كثيرًا في هذا السياق، حيث تدل الحوادث التاريخية في التاريخ الإسلامي على عكس ما يروجون له في أفلامهم ومسلسلاتهم وكثير من الكتب التي تدعي أنها متحدثة باسم الإسلام، ودعونا نرصد السياقات المتعددة لعلاقات النبي –صلى الله عليه وسلم– بهؤلاء الكافرين المعاصرين له:

السياق الأول: قبل الهجرة: يتفق الإسلاميون والمضادون للإسلام على أن الإسلام في هذه المرحلة كان مضطهدًا، وواقعًا تحت سطوة غير المؤمنين بدعوته، نظرًا لاعتبارات عديدة، منها القوة العددية والمكانة والنفوذ، إلى غير ذلك من أسباب فرضت على المسلمين ثلاث هجرات خارج مكة: اثنتين إلى الحبشة، والأخرى الرئيسية التي توجها الرسول –صلى الله عليه وسلم– نفسه إلى المدينة المنورة، وكانت بداية تحول نحو الاستقرار المؤسس لتنظيم الكيان الإسلامي الناشئ مجتمعًا كان أو دولة أو تنظيمًا أو أيًّا ما تريدون إطلاقه عليه في هذه المرحلة المدنية، وهنا تبدأ مرحلة مختلفة في التعامل مع هؤلاء الكافرين بهذه الدعوة، يحب البعض أن يطلق عليها مرحلة الدموية في التاريخ الإسلامي، وأحب أن أطلق عليها مرحلة الدفاع المنظم، والذي تمثلت فيه الدعوةُ قولَ الله تعالى: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦"[1] فدافع الكيان عن نفسه، واستقبل الحروب على حدوده، ولم يخرج ضد أحد، لا في بدر ولا في أُحُدٍ ولا في الأحزاب...، وحتى في صلح الحديبية خرج دون سلاح، ليقيم شعائره الدينية، ولما "جنحوا للسلم" جنح لها، وقبل شروط الهدنة، ولم يبتدئ غيره بالحرب!!

والكافرون أو المشركون، إنما كانت الآية الفاصلة في تحديد العلاقة معهم: " ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦"[2]، فالإعراض عنهم هو القاعدة العامة في العلاقة الدينية معهم، فلا يجوز للمسلم اتباعهم دينيًّا، لكن العلاقات التجارية والاقتصادية وغير ذلك من أنواع العلاقات إنما هي ممتدة بشهادة التاريخ الإسلامي وتجارة المسلمين مع الكافرين قبل الهجرة وبعدها، هل نبالغ إذا قلنا إن القرآن لم يحرم الصداقة مع الكافرين؟ وهل إذا وجدنا في القرآن أن النهي القاطع والتحذير شديد اللهجة إنما يعودان على المشاركة في الكفر بآيات الله... هل إذا وجدنا هذا يكون حجة على عدم قتل المخالف؟ "وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا

---

[1] الآية ١٢٦ من سورة النحل

[2] الآية ١٠٦ من سورة الأنعام

﴿١٤٠﴾[1]، نعم، فلا يجوز للمسلم أن يشترك في مثل هذا الحديث، وعليه أن ينصرف فورًا إذا اتجه الحديث إلى مثل هذا، أو يرد، وإذا رد، لا بد أن يكون رده خاضعًا لمعايير محددة: "وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴿١٠٨﴾[2]!

إن الانتصار لله -سبحانه وتعالى- إنما يكون بالالتزام بمبادئه وتعاليمه وقيمه، ولا يكون بالصوت العالي أو الصدام أو الانعزال.. أن تكون مسلمًا ملتزمًا بأوامر الله -سبحانه وتعالى- هو الغاية الأعظم وليس الاعتداء على المخالفين الذي يحمل إساءة إلى الإسلام وتنفيرًا للناس منه!!

إذا أراد المسلم أن يكون مسلمًا بحق، فعليه أن يكون من عباد الرحمن: "وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾[3]، أما الآخرون فليسوا حجة على الإسلام، بل الإسلام حجة عليهم!

ملاحظات عامة على العلاقة بالآخر:

---

[1] الآية ١٤٠ من سورة النساء

[2] الآية ١٠٨ من سورة الأنعام

[3] الآية ٦٣ من سورة الفرقان

* من الغريب واللافت للانتباه أن القرآن يخلو تمامًا من كل إشعارات القتل بناء على اختلاف العقيدة، حتى أن الأوامر الصريحة بالقتل والتي فهمت على أنها أمر بقتل المخالف، مثل قوله تعالى: "فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥"[1]، إنما نزع فهم هذه الآيات من سياقها، فليس في الآية أمر بقتل المشركين لأنهم مشركون، ألا ترى قوله: "فإذا انسلخ الأشهر الحرم"؟ ألا يدل هذا على سياق حرب توقفت بسبب الأشهر الحرم، إذن فإن الآيات في مطلع سورة التوبة تتناول المشركين الذين نقضوا عهدهم بعد عودة النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة تبوك، فحلل الله -سبحانه وتعالى- رسوله من عهده معهم، ومنحهم مهلة ليغادروا قريشًا أو يلتزموا بشروط عهدهم لمن له عهد مع رسول الله، وهو ما تم ذكره في الآية السابقة على الآية المذكورة: "إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤"[2]، ومن العجيب أن الذين يقتطعون سياق الأمر بقتل المشركين ليصبح حلالًا إسلاميًّا قاطعًا، يتجاهلون الآية التالية:"وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ

---

١ سورة التوبة

٢ سورة التوبة

كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦"[1]!! ألا يؤكد السياق أننا أمام حالة محددة وليس سياقًا عامًّا قائمًا على إباحة قتل المخالف، حتى لو كان كافرًا أو مشركًا؟!!

* إن الأوامر الموصوفة بالدموية في القرآن كلها في سياق القتال وليس القتل، والفارق بينهما كبير، فالقتال مشاركة تستلزم طرفين في معركة: "وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠"[2].. "وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢"[3].. "قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩"[4]، وأمر الجزية كما هو شائع عند الأغلبية العامة من المفسرين والفقهاء إنما هو أمر عسكري متعلق بالجيوش، وهي بديل عن الحماية العسكرية إلخ... "يَٰٓأَيُّهَا

---

١ سورة التوبة
٢ الآية ١٩٠ من سورة البقرة
٣ الآية ١٢ من سورة التوبة
٤ الآية ٢٩ من سورة التوبة

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣"[1]...

وأوضح نص في آداب القتال كان قوله تعالى: "وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠"[2].. ومن البديهي أن تُحمل بقية السياقات على هذا السياق وليس العكس، لأن هذا السياق يتمتع بالعمومية الأقرب لمفهوم القاعدة العامة، فالمفعول به في الآية "الذين يقاتلونكم" وهي عامة تنطبق على كل من ندخل معه في قتال، فالأمر كما هو واضح أمر بالرد وليس الابتداء، ونهي عن الاعتداء المجرد وليس على مفعول به محدد، وهو ما سيرد بالتفصيل في سياق "الإسلام والحرب"!!

---

١ الآية ١٢٣ من سورة التوبة

٢ الآية ١٩٠ من سورة البقرة

obeikan.com

القرآن وما دونه

لعله يكون شرطًا من شروط إيمان كل مسلم أن يعتقد أن القرآن الكريم هو النص الوحيد المقدس في الدين الإسلامي، وكل ما عداه دونه.. إلا أن التطبيق الفعلي قد يخرج بنا عن هذه القاعدة!! فالكلام الأصولي عن نسخ القرآن بالسنة (وفي النسخ ذاته جدل) يحمل خلافات كثيرة، ولكنه يصل إلى الإجازة: "يجوز تخصيص المتواتر بأخبار الآحاد، لأن التخصيص بيان، وقد قدمنا أن المتواتر يبيَّن بالآحاد، قرآنًا أو سنة"[1].

وعلاقة القرآن بالسنة علاقة وثيقة؛ لا يمكن الفصل بينهما بحال من الأحوال: "وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤"[2].. فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- مكلف بالتشريع قطعًا، ونصوص القرآن دالة على ذلك: "وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢"[3].. فأثبت الله -سبحانه وتعالى- لرسوله الكريم طاعة منفصلة عن طاعة الله، رغم أنها بالضرورة لا تخرج عن طاعة الله، ولا يمكن أن تتعارض معها، فالمصدر واحد، وكلام رسول الله -صلى

---

١ الأمين الشنقيطي- مذكرة أصول الفقه- ص٢٢٢

٢ الآية ٦٤ من سورة النحل

٣ الآية ١٢ من سورة التغابن

الله عليه وسلم- في التشريع مستمد من الله -سبحانه وتعالى-: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤"[1]..

إذن فإننا -بشكل قاطع- لا ننكر السنة النبوية المطهرة، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، ولو كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موجودًا بيننا، أو كنا موجودين حوله، وأمرنا أي أمر، فإن أوامره مطاعة وكلامه مصدق -صلى الله عليه وسلم-.

يتضح إذن أنه إذا كان في الأمر مشكلة فهي في صدق نسبة الأحاديث إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهل فعلاً قال الرسول هذا الحديث؟ وحتى لا تتسرع أخي الفاضل، فإني لن أصل من هذا المدخل إلى إنكار السنة أو التشكيك فيها، بل سأسعى إلى التوفيق بينها وبين القرآن، فلا غنى عن السنة في التشريع، ولا يمكن تجاهلها!!

ولكننا في حاجة إلى تفريق دقيق بين السنة وكتب السنة، تُعرّف السنة بحسب أغلب المراجع بأنها: "كل ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير"، وبعض المراجع تتوسع بإضافة الصفات الخَلقية والخُلقية، وبعضها يتوسع بإضافة ما قبل البعثة أيضًا.. المهم هو: هل السنة كل ما فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- أم كل ما أُثر عنه؟ ويكفي ما رواه البخاري عن تقبيل عمر بن

---

١ الآيتان ٣، ٤ من سورة النجم

الخطاب للحجر الأسود، وقال له: "والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبلك ما قبلتك".. فعمر -رضي الله عنه- اعتمد على رؤية النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل هذا الفعل، وفعل مثله، طاعة وامتثالاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويسرد كثيرون حديث البخاري عن أبي هريرة تشكيكًا في أحاديث أبي هريرة واتهامًا له بالكذب على رسول الله: "قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غِنًى، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» تَقُولُ المَرْأَةُ: إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي، وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي، وَيَقُولُ العَبْدُ: أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي، وَيَقُولُ الِابْنُ: أَطْعِمْنِي، إِلَى مَنْ تَدَعُنِي "، فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: لاَ، هَذَا مِنْ كِيسِ أَبِي هُرَيْرَةَ"[1]، وإن كنت أظن أن هذا النص دليل على أمانته -رضي الله عنه-، فلو كان مدلسًا لكانت إجابته "نعم"، وانتهى الأمر.. لكنه كان أمينًا والإمام البخاري أيضًا أمين، فكان يمكنه تجنب السؤال والإجابة، إذا سمح لنفسه بالتدخل في النصوص التي نقلها!

---

١ صحيح البخاري – بَابُ وُجُوبِ النَّفَقَةِ عَلَى الأَهْلِ وَالعِيَالِ — ج ٧ ص ٦٣

هل أرمي من هذا إلى إعلان الاعتقاد بصحة نسبة كل ما ورد في كتاب الإمام البخاري؟ الحقيقة -ولتبدأ أو تستمر الاتهامات إذن- لا!

هل كتاب الإمام البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله؟ على الرغم من انزعاجي من الربط بين القرآن الكريم كلام الله -سبحانه وتعالى-، وكتاب الإمام البخاري -رضي الله عنه- الذي هو جهد بشري.. على الرغم من هذا فإني أقول: إن كتاب الإمام البخاري هو أصح الكتب في علم الحديث، وهو أعلى الشروط وأكبر الاجتهادات التي بذلها عالم مسلم في هذا المجال، وكل ما ناله الإمام البخاري من تقدير واحترام من معاصريه وخَلَفِهِ ليس كثيرًا عليه -رضي الله عنه-.

فما المشكلة إذن؟ المشكلة ليست في الإمام البخاري -رضي الله عنه-، ولا حتى في الجوانب النظرية من الطعن في أو الدفاع عن شخصية هذا العالم الكبير.. المشكلة تطبيقية في عدد غير كبير من الأحاديث التي اشتملتها كتب الأحاديث مما يتعارض مع القرآن الكريم، وهنا نقف على الدعوة إلى إعادة دراسة هذه الأحاديث، فالإمام البخاري (١٣ شوال ١٩٤ هـ - ١ شوال ٢٥٦ هـ) عرض مجهوده ومنتجه على أئمة عصره: علي بن المديني، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وآخرين من كبار أئمة عصره، وتلقته الأمة من بعده بالقبول والثقة.

أيمنع هذا إذن من نقد الإمام البخاري، وهل يعتبر هذا بدعًا من القول أن يجرؤ أحد على قول هذا؟

تأمل معي الرواية التالية، لتعرف كيف رأى علماء المسلمين كتاب الإمام البخارين مع تقديرهم واحترامهم لجهده: "روي عن مسلمة بن قاسم قال: سمعت من يقول عن أبي جعفر العقيلي قال: لما ألف البخاري كتابه في صحيح الحديث عرضه على علي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهم فامتحنوه فكلمهم قال له كتابك صحيح إلا أربعة أحاديث. قال العقيلي: والقول فيها البخاري وهي صحيحة"[1]

واللافت للانتباه أن الإمام مسلم بن الحجاج (٢٠٦ هـ - ٢٦١ هـ) تلميذ الإمام البخاري لم يمنعه تقديره لأستاذه وشيخه الإمام البخاري من أن يجتهد اجتهادًا عظيمًا هو الآخر، والناظر لما بين الكتابين لن يجد صعوبة في اكتشاف أن هناك اختلافات في بعض الأحاديث، فقد أثبت الإمام مسلم بعضًا مما لم يثبته الإمام البخاري، كما أنكر بعضًا مما أثبته، وهو تلميذه! فلم يكن وجود وجهد الإمام البخاري مانعين من اجتهاد المسلمين في هذا المجال، حتى أن بعض المعاصرين والتابعين قدموا الإمام مسلم على الإمام البخاري، رغم أن الأغلبية حتى وقتنا هذا تقدم الإمام البخاري على الإمام مسلم، تابع معي: قال أبو علي الحسين بن علي النيسابوري: «ما تحت أديم السماء أصح

---

١ فهرسة ابن خير الإشبيلي – أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة اللمتوني الأموي الإشبيلي (طبعة دار الكتب العلمية: ج١ ص٨٣)

من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث»[1].. قال أحمد بن سلمة النيسابوري: «رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما»[2].. وقال ابن عبد البر: «أجمعوا على جلالته وإمامته وعلو مرتبته. وأكبر الدلائل على ذلك كتابه الصحيح الذي لم يوجد في كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث»[3]!

فإذا كان الجهد لم يتوقف في عصر الإمام البخاري وفي وجوده -رضي الله عنه-، فكيف يتوقف بعد مئات السنين بعده؟ وإذا كان جهد الأئمة في هذا التوقيت كان في معظمه منصبًّا على اكتشاف صحيح النسبة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلماذا لا يكون هناك اجتهاد معاصر في بحث الأحاديث من حيث المضمون، ومن حيث مطابقتها للقرآن الكريم، ومن حيث تبويبها وفقًا للواقع!!

---

١ علوم الحديث لابن الصلاح، النوع الأول الحديث الصحيح، جـ ١، صـ ١٩

٢ موقف الإمامين البخاري ومسلم من اشتراط اللقيا والسماع في السند المعنعن بين المتعاصرين، المؤلف: خالد بن منصور بن عبد الله الدريس، مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، صـ ٣٩، موقع المكتبة الشاملة

٣ الكنى والأسماء للإمام مسلم، تحقيق عبد الرحيم القشقري، مقدمة التحقيق، صـ ١١، طبعة عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، سنة ١٩٨٤م

وهنا سأتعرض لاقتباس طويل نسبيًّا من موقع "الإسلام سؤال وجواب" سؤال رقم: ١١٩٥١٦، الذي يسأل عن أحاديث البخاري ومسلم هل فيها أحاديث ضعيفة، وجاء في الإجابة ما نصه: "قال شيخ الإسلام: "لا يتفقان على حديث إلا ويكون صحيحًا لا ريب فيه، قد اتفق أهل العلم على صحته" "مجموع الفتاوى"(٢٠/١٨)

وما عدا ذلك، فقد تكلم على بعض منه بعض الحفاظ، وغالب ما في البخاري منه سالم من التضعيف عند التحقيق.. وما عدا ما تُكُلم فيه، فقد وقع اتفاق الأمة على صحته.

قال أبو عمرو بن الصلاح: "ما انفرد به البخاري أو مسلم مندرج في قبيل ما يقطع بصحته، لتلقي الأمة كل واحد من كتابيهما بالقبول، على الوجه الذي فصلناه من حالهما فيما سبق، سوى أحرف يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد من الحفاظ كالدارقطني وغيره، وهي معروفة عند أهل هذا الشأن" مقدمة ابن الصلاح (ص١٠).

ففي صحيح مسلم خاصة، جملة من الأحاديث، تكلم عليها بعض العلماء، بالتضعيف والإعلال، منهم أبو الحسن الدارقطني، وأبو علي النيسابوري، وأبو الفضل بن عمار، وأبو علي الغساني، وأبو الحسين العطار، وأبو مسعود الدشقي، وأبو عبد الله الذهبي.

وفي صحيح البخاري بعض ذلك، إلا أنه قليل جدًّا، وقد يسلم هذا القليل أيضًا.

انظر: "كتاب الإلزامات والتتبع" لأبي الحسن الدارقطني، "ميزان الاعتدال" (٤/٣٩-٤٠)، "مقدمة الفتح" (٣٤٤)، "شرح مسلم للنووي" (١/٢٧)، "سلسلة الأحاديث الضعيفة" (١/١٤٢) (٢/٤٧١-٤٧٥) (٥/٢١٨).

قال ابن الصلاح في مقدمة شرح مسلم له:

"ما أخذ عليهما -يعني على البخاري ومسلم- وقدح فيه معتمد من الحفاظ فهو مستثنى مما ذكرناه لعدم الإجماع على تلقيه بالقبول".

قال الحافظ:

"وهو احتراز حسن. واختلف كلام الشيخ محي الدين في هذه المواضع؛ فقال في مقدمة شرح مسلم ما نصه: "قد استدرك جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلا فيها بشرطهما ونزلت عن درجة ما التزماه، وقد ألف الدارقطني في ذلك، ولأبي مسعود الدمشقي أيضًا عليهما استدراك، ولأبي علي الغساني في جزء العلل من التقييد استدراك عليهما. وقد أجيب عن ذلك أو أكثره".

وقال في مقدمة شرح البخاري: "قد استدرك الدارقطني على البخاري ومسلم أحاديث فطعن في بعضها، وذلك الطعن مبني على قواعد لبعض المحدثين ضعيفة جدًّا مخالفة لما عليه الجمهور من أهل الفقه والأصول وغيرهم فلا تغتر بذلك".

قال الحافظ:

"وسيظهر من سياقها والبحث فيها على التفصيل أنها ليست كلها كذلك، وقوله في شرح مسلم: "وقد أجيب عن ذلك أو أكثره "هو الصواب".. مقدمة الفتح (ص٣٤٤).

وقال شيخ الإسلام: "ومما قد يسمى صحيحًا: ما يصححه بعض علماء الحديث وآخرون يخالفونهم في تصحيحه فيقولون: هو ضعيف ليس بصحيح، مثل ألفاظ رواها مسلم في صحيحه، ونازعه في صحتها غيره من أهل العلم، إما مثله أو دونه أو فوقه، فهذا لا يجزم بصدقه إلا بدليل، مثل ما روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الكسوف ثلاث ركوعات وأربع ركوعات. انفرد بذلك عن البخاري، فإن هذا ضعفه حذاق أهل العلم وقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات ابنه إبراهيم.

ومثله حديث مسلم: "إن الله خلق التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة"، فإن هذا طعن فيه من هو أعلم من مسلم، مثل: يحيى بن معين ومثل البخاري وغيرهما. وذكر البخاري أن هذا من كلام كعب الأحبار.. وطائفة اعتبرت صحته مثل أبي بكر ابن الأنبارى، وأبي الفرج ابن الجوزى وغيرهما. والبيهقى وغيره وافقوا الذين ضعفوه.

وفى البخاري نفسه ثلاثة أحاديث نازعه بعض الناس في صحتها.

والبخاري أحذق وأخبر بالفن من مسلم، ثم ينفرد مسلم فيه بألفاظ يعرض عنها البخاري، ويقول بعض أهل الحديث إنها ضعيفة. ثم قد يكون الصواب مع من ضعفها، كمثل صلاة الكسوف بثلاث ركوعات وأربع، وقد يكون الصواب مع مسلم، وهذا أكثر" .

انتهى مختصرًا. مجموع الفتاوى (١٨/١٧-٢٠)

وقال أيضًا:

"جمهور ما أنكر على البخاري مما صححه يكون قوله فيه راجحًا على قول من نازعه، بخلاف مسلم بن الحجاج، فإنه نُوْزِعَ في عدة أحاديث مما خرجها، وكان الصواب فيها مع من نازعه" مجموع الفتاوى (١/٢٥٦)

وانظر: "التاريخ الكبير" (١/٤١٣) ، "شرح مسلم للنووي" (١٦/٦٣) ، "جلاء الأفهام" (٢٤٨) ، "إرواء الغليل" (٣/١٢٧) ، "الضعيفة" (٢/٤٢٧).

وقال د. الشريف حاتم بن عارف العوني، عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى: "نص العلماء على أن أحاديث الصحيحين كلها مقبولة، إلا أحاديث يسيرة انتقدها بعض النقاد الكبار، الذين بلغوا رتبة الاجتهاد المطلق في علم الحديث، وأن ما سوى تلك الأحاديث اليسيرة، فهي متلقاة بالقبول عند الأمة جميعها".

انتهى الاقتباس

والشاهد هنا أن هؤلاء العلماء الذين تناولوا الصحيحين بالنقد لم ينزلقوا إلى دائرة التجريح والإساءة، وإنما وقفوا شديدي الوضوح في النقطة الفاصلة بين

التقديس والتجريح، وكانوا شديدي الوعي بلوازم التقدير المطلوب للشيخين الجليلين، دون أن يقعوا في تقديسهما! كما لم يتهموا بعضهم بالكفر أو محاولة هدم الإسلام أو إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة كما نسمع الآن في كل لحظة!!

إن الإمامين الجليلين، وغيرهما من الأئمة والشيوخ والفقهاء والعلماء، قدموا للأمة وللدين أكبر خدمة يمكن أن يقدمها إنسان، إلا أنهم لم يخرجوا بها من إنسانيتهم، ولعلنا نخدمهم أكثر ونخدم الدين أكثر إذا أضفنا مزيدًا من الجهد إلى الوعاء الذي امتلأ خيرًا بهم.. وحتى تكون الدعوة واضحة، فإنها ليست موجهة للأفراد في مختلف بقاع الدولة الإسلامية، ولكنها موجهة إلى المؤسسات الدينية التي تملك من القدرات والموارد المالية والبشرية أن تقدم للعالم أجمع كتابًا جديدًا، وليكن عنوانه: "صحيح السنة النبوية"، تقوم فيه على جمع وتبويب الأحاديث بمنهج موضوعي يتخذ من القرآن الكريم إمامًا، ويستبعد الأحاديث والمرويات التي تتعارض مع كتاب الله، وتشرح العلل الزمانية والمكانية للأحاديث، ليكون مساعدًا للمسلمين على التعرف إلى دينهم ولغير المسلمين الباحثين عن الحقيقة، وحتى لا نكون مضطرين في كل يوم إلى الدفاع عن شبهات إرضاع الكبير، وبول الإبل، وزواج النبي، وانتشار الإسلام بالسيف...

لعلها تبدأ قريبًا!!

obeikan.com

لغير المسلمين.. تمهيد

"وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ "[1]

الفارق بين مناقشة أهل الكتاب والملحدين أو اللادينيين كبير جدًّا، فالفريق الأول يمكن مناقشته من خلال وعي ديني لأنهم مؤمنون بكتاب مقدس، ويصدقون في الغيبيات، في حين لا يمكن هذا مع الطرف الثاني، وأنا لا أقول عن الملحدين أو اللادينيين إنهم فريق، نظرًا لكون الإلحاد أو اللادينية موقفًا شخصيًّا في أغلب أحواله لا يمثل منهجًا واضحًا متبعًا، فليست هناك دعوة إلحادية يؤمن بها الملحد، بل إن الموقف الشخصي هو الغالب فيما بينهم، وقد يكون اللاديني رافضًا للأديان لعلة ضعف رآها فيها أو لأسئلة لم يُجبْه أحد عنها...

لكنهم جميعًا يتفقون على انتقاد الإسلام واتهامه، وليس الإسلام وحده، فالفريق الثاني: الملحدون واللادينيون، ينتقدون الأديان الثلاثة ويرفضونها!!

---

١ الآية ٤٨ من سورة المائدة

ومع تعدد الاتهامات أرى أن من المفيد أن نحمل مجالاتها، فهناك اتهامات أخلاقية تطال الدين الإسلامي فيما يتعلق بالجنس والشهوات وإهانة المرأة... وهناك اتهامات أسلوبية تتعلق بأسلوب القرآن ولغته وبلاغته، وهناك اتهامات إنسانية تتعلق بدموية الإسلام وانتهاكه لخصومه والتنكيل بهم، وهناك اتهامات علمية تتعلق بوجود معلومات علمية يكذبها العلم الحديث، وهناك اتهامات بدعوة الأديان أتباعها إلى التخلف، كما تواجه الأديان أيضًا اتهامات بتناقض محتواها وأخباره...

كم ضخم من الاتهامات بعضها ذكي؛ تشعر أن وراءه باحثًا حقيقيًّا مجتهدًا، وبعضها سطحي ساذج يكشف عن عدم وعي ناقله بما ينقله، ورغم أنه مزعج جدًّا أن أقوم بمناقشة كل الفئات معًا، فإنه من الضروري أن يكون الأمر كذلك، حتى لا يبدو أن هناك تغييرًا في منطق المناقشة.. وسأسعى حتى إلى عدم الاستشهاد بالكتاب المقدس أو بتراث أهل الكتاب حتى يتسع الأمر للجميع، وحتى لا أتجاهل الملحدين أو اللادينيين، والذين سيكون منطق مناقشتهم عقليًّا أكثر.

لماذا نحمد الله على نعمة الإسلام؟

هل في الإسلام ما يستحق أن نحمد الله عليه؟

نعم يا سيدي، سأحدثك عن نعمة الإسلام في الدنيا، وليس في الآخرة؛ لعلك لا تؤمن بها، أو تؤمن بها على دين آخر: في الإسلام ما يستحق أن نحمد الله عليه: في الإسلام إيمان بأن الناس سواسية؛ لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي... في الدنيا على الإطلاق، ومعيار التقوى المذكور في الآية إنما هو معيار إلهي، يكون جزاؤه في الآخرة، وليس في الدنيا: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣"[1]، وفي الإسلام أيضًا تربية أخلاقية وسلوكية يقوم بها على الفرد والمجتمع لينشأ المجتمع السليم الصالح الذي يحمي أفراده، ويوفر لهم كل سبل التكامل الاجتماعي: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[2]، ثم يمد الأمر إلى الجنس البشري

---

[1] الآية ١٣ من سورة الحجرات

[2] رواه البخاري ومسلم

كافة كما يتجلى في خطبة الوداع المنقولة في كتب الحديث والسير على تنوعها...

أحمد الله على نعمة الإسلام، لإن الإسلام يجبر المسلمين على صيانة عرضي وعرضك: "ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء"[1]... والإسلام نعمة كذلك لأنه أمر أتباعه أن يصونوا كل نفس في الحياة: لقول النبي –صلى الله عليه وسلم– على سبيل المثال: "أيُّها النّاسُ، إنّ دماءَكم وأموالَكم عليْكُم حرامٌ، إلى أن تلقَوا ربِّكم كحُرمةِ يومِكم هذا، وَكحُرمةِ شَهرِكم هذا..."[2]، ولقول الله –سبحانه وتعالى–: "مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾".

ودعني أجب عن بعض الأسئلة المطروحة في شكل سؤال وجواب، حتى لا يبدو الأمر أني أنتقي نقاط القوة في الإسلام وأتجاهل نقاط الضعف، وسأعتمد على بعض الأسئلة التي طرحت عبر أحد البرامج على قناة مسيحية، وهي موجودة عبر الإنترنت:

---

[1] رواه الترمذي

[2] من خطبة الوداع للنبي –صلى الله عليه وسلم–، فيما رواه البخاري ومسلم

هل من النعمة أن تولد داخل دين معين؟ وهل الولادة فى غير الإسلام نقمة؟ فلماذا سيحاسبهم الله إذن؟ والكلام هنا باعتبار الإسلام ميراثًا تقليديًّا لا دخل للشخص في اختياره، والكلام قد يحمل مغالطة جزئية، إذ تطرح تصورًا جامعًا للمسلمين باعتبارهم مقلدين، والحق أن من بين المسلمين وغيرهم مقلدين ومثقفين وعلماء ودارسين وباحثين... فليس كل أبناء العالم رجال دين، ولكن منهم من يكتفي بما يسمى الدليل، فلكي تثبت أن إنسانًا ما لا يزال حيًّا، فإنك ستكتفي بمجرد غمضة جفن أو إيماءة أو حركة يد، ولن تكون مضطرًّا ساعتها إلى دراسة بقية وظائف الجسم لتتأكد من حياته، بمعنى أنك لن تقوم برسم قلب وقياس الضغط حتى تتأكد من حياته... هذا ما فعله كثير من المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات المختلفة، فقد قام عندهم الدليل من خلال ما سمعوه من شيوخهم، وقد تكفي معجزة واحدة أو دليل واحد عند كثير من الناس حتى يحمدوا الله على نعمة الإسلام ويؤدوا فرائضه ليستمروا في حياتهم، قائمين بالحد الأدنى من العلم الديني..

ولست أرى أن هذا هو الشكل الأمثل للتفقه في الدين، ولكني أرصد الواقع فقط.. ستجد مسلمين لا يستطيعون أن يصمدوا في مناظرة دينية لدقيقة واحدة، وكذلك ستجد مسيحيين، وأيضًا لادينيين وملحدين، اتخذوها وجاهة اجتماعية ومساحة أكبر من الحرية!! فالتقليد ليس بهذا القدر من السوء إن كان قد اكتفى المقلِّد فيه بدليل واحد على الأقل، وإن كنت أرى

أن على كل متبع لدين أن يتبحر فيه، لكني مع ذلك لا أستطيع أن أشق على الناس وأجبرهم على هذا وهم لا طاقة لهم به!!

أما بخصوص ما بتعلق بالنقمة على الآخرين، فالإسلام علمنا أن ألا ننشغل بما سيؤول إليه أمر الآخرين، وكون كثيرين من المسلمين لا يفعلون هذا، فإنهم -كما قلنا- ليسوا حجة على الإسلام، بل الإسلام حجة عليهم: " وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ١٠٨"[1]، فهؤلاء الذين يدعون من دون الله يعلمنا الله أن إليه مرجعهم فينبئهم، وأن كل أمة مقتنعة بما تؤمن به، وهو مزين لهم، فليس معنى أن الذكر يحمد الله في بعض الأحيان على كونه ذكرًا أنه يحتقر الأنثى، وليس معنى أن الأنثى تحمد الله في بعض الأحيان على كونها أنثى أنها تحتقر الرجل!! إنني أحمد الله على ما أقتنع أنه الصواب والحقيقة، وهكذا يفعل كل فرد، بل إن المخلصين والمحبين منهم يسعون إلى إنقاذ بقية البشر مما هم فيه، فنسمع ونرى ونتابع مقالات للملحدين واللادينيين وبرامج للمسيحيين والمسلمين في نقد الآخر، كنوع من أنواع الدعاية السلبية للآخر والإيجابية لما يمثلونه، في محاولة إنقاذ البشر من ضلالهم وجذبهم إلى ما يؤمن به هذا المخلص الأمين!!

---

[1] الآية ١٠٨ من سورة الأنعام

إنها عادة البشر، ولكن على قدر التسامح وقبول الآخر وتقدير التنوع يكون السلام في العالم، فالإسلام أخبر أتباعه بأنه لن يحدث أن يؤمن كل الناس: "وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨"[1]، "وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩"[2]، فالمسلم يحمد الله على هدايته للإسلام، وليس عليه أن يهتم بأين يكون الآخرون، إن لم يكن عليه أن يدعو لهم بالهداية!

ثانيًا: الحدود:

نعم يا سيدي، إننا نحمد الله على الحدود/ القانون/ العقوبات... سَمِّها كما تشاء، فنحن نرى أن هذه الحدود إنما هي لحماية المجتمع؛ لا نرى أن الإسلام كان يهدف إلى قطع يد السارق، بل هو يهدف إلى منعه من السرقة، وقتل القاتل إنما هو صيانة للمقتول، فلو استحضر كل شخص يخطط (مع سبق الإصرار والترصد) لقتل آخر أنه سيفقد حياته بما سيفعله، فإنه سيفكر مليًّا في هذا التصرف، وسيعيد النظر فيه...

إن المجتمعات الإنسانية ليس لها غنى عن القانون، وإلا فستتحول إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، ويستقوي القادر على غير القادر، ولهذا فإننا حريصون كل الحرص على سن القوانين حتى وقتنا الحاضر..

---

[1] الآية ١١٨ من سورة هود

[2] الآية ٩٩ من سورة يونس

أما إذا كنت تقصد أن القوانين الإسلامية قاسية وباطشة، فهناك –وأنا منهم– من يرى أن المسؤول الأول عن تحقيق هذه القسوة وهذا البطش إنما هو مرتكب الجريمة، فلا يمكن أن ألوم "عشماوي"[1] وأعتبره قاتلاً، وهو القائم على تنفيذ أحكام الإعدام! أو ألوم السجان –إن خلا السجن من الأبرياء– وهو يحمي المجتمع من هؤلاء الخارجين عن القانون!! فالإسلام لم يشرع هذه الحدود ليطبقها، وإنما شرعها ليرتدع الناس، وراجع قصة المرأة في صحيح البخاري التي اعترفت للنبي –صلى الله عليه وسلم– بالزنا وأخذ يراجعها حتى تلد وترضع... والرجل الذي اعترف هو الآخر، فأخذ النبي أيضًا يراجعه ويقول: لعلك قبلت... لعلك لامست...

الإسلام لم يهرول وراء تطبيق الحدود، بل سعى إلى إقامة ضمير فاعل وقوي ومهيمن داخل كل إنسان ليمنعه من ارتكاب الجريمة!

هل نحمد الله على سبي النساء وامتلاكهن وبيعهن...؟ اسمح لي أن أؤجل الإجابة على هذا السؤال في حينه، تحت عنوان الإسلام والرق، ليكون الأمر أكثر تفصيلاً، وَلِنَفِيَهُ حَقَّه فيه!

لماذا نحمد الله على الإسلام ونحن نعيش من خيرات الكفار: الإنترنت، والفضائيات، والتليفزيون، واليوتيوب، والفيسبوك، والكاميرا، والتليفون،

---

[1] لقب يطلق على منفذي أحكام الإعدام في مصر

والسيارات... هل قدم لك الإسلام أيًّا من هذه الخدمات أو أسهم فى الحضارة البشرية؟

لن أجيبك على هذا السؤال بـــ"نعم"، ولكني دعني أوضح لك ما وقعتَ فيه من خلط.. فقد خلطت يا سيدي بين الدين والحضارة، فالدين أحد مكونات الثقافة/ الحضارة، ولكنه ليس مساويًا لها.. ولكي يكون الكلام أكثر تحديدًا: هل أنتجت أي ديانة اختراعًا علميًّا أو اكتشافًا أو نظرية علمية؟ الديانات ليس مسؤولة عن هذا، ففي الوقت الذي كانت أوربا فيه في عصور الظلام كانت الحضارة العربية ذات الصبغة الإسلامية في أوج مجدها وتقدمها وريادتها للعالم.. وقبل هذا كان اليونان والإغريق متقدمين، في حين كان العرب قبائل متشرذمة في صحاري شبه الجزيرة العربية، وقبل اليونان والإغريق كان المصريون القدماء، وحسبهم ما لا يزال العالم حائرًا فيه حتى الآن...

ألا يعتبر هذا دليلاً على أن الدين ليس مسؤولاً عن هذا؟ فكل الحضارات ذات الأغلبية الدينية أو المتصفة بدين معين كانت لها مراحل تقدم ومراحل انحسار.. وكون العالم المتقدم الآن ذا أغلبية مسيحية، فهذا لا يعني أن المسيحية أنتجت علمًا، وإلا فهي مطالبة بتبرير العصور الوسطى في أوربا!!

أما فكرة العيش على خيرات الكفار، والعلاج في بلاد الكفار (بحسب وصفك)، فسأحاول ألا أكون متهكمًا في الإجابة، رغم أن السؤال نفسه يدعو إلى هذا!! هل سأل أحد الملحدين أو اللادينيين وهو يجلس على المقهى

عن دين الشخص الذي يقدم له المشروبات التي طلبها؟ وهل استنكر أحد العلماء المتدينين أن يستكمل جهدًا بدأه عالم ينتمي إلى دين آخر، أو لا ينتمي إلى دين أصلا؟! أليس لفيثاغورس فضل على النظريات الرياضية الحديثة في العالم؟ هل استنكر أحد العلماء المسيحيين أن يستفيد من فيثاغورس باعتباره ليس مسيحيًّا، وهل يعتبر فضلاً من طبيب مسلم في مصر -باعتباري مصريًّا- إذا عالج ملحدًا أو لادينيًّا؟ أو هل يكون مطلوبًا من الملحد أن يسأل عن طبيب ملحد، ومن المسلم أن يسأل عن طبيب مسلم، ومن المسيحي أن يسأل عن طبيب مسيحي...؟ إننا بذلك نخرج من إطار الحياة إلى إطار العبث!!

الأديان يا سيدي ليست مسؤولة عن الاختراعات العلمية والطب والفلسفة، إنها فقط تدعو أتباعها إلى إتقان ما يقومون به: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"[1].

ويقول السائل في نهاية برنامجه: بل الحمد لله على نعمة العقل، وأنا أقول: يا سيدي، إن كل الفارق بيني وبينك في هذه الجملة هو حرف العطف، فأنت استخدمت "بل"، وأنا أستخدم "و"، فأنت تقول: "بل الحمد لله على نعمة العقل"، وأنا أقول: "الحمد لله على نعمة الإسلام، وعلى نعمة العقل"، فلا أرى القولين متعارضين، بل أراهما في سياق التكامل.

---

[1] حديث شريف- أخرجه أبو يعلى والطبراني

هل القرآن كلام الله؟

يعتبر هذا السؤال محوريًّا وحاسمًا بالشكل الأكبر في قضية الإيمان، فالشرط الأساسي الذي يجعل الشخص مؤمنًا بقداسة أي نص في أي دين هو نسبته إلى الله -سبحانه وتعالى-، حتى ما ينسب إلى الأنبياء أنفسهم من نصوص، إنما تحمل مكانتها من اعتباره ناقلاً من الله -سبحانه وتعالى-: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤"[1]، ولو تسرب الشك إلى هذا النص لأي اعتبارات، فإنه بالضرورة يتسرب إلى علاقته بمصدره: الله!!

وقد تنوعت مصادر الشك في القرآن الكريم -موضوعي هنا- لأسباب عديدة، ولكن يمكن تبويب هذه الأسباب تحت عنوانين رئيسيين، أو اعتبارين أساسيين: الأخطاء، وأفق التوقعات! وأضع تحت باب الأخطاء ما يوصف بالتناقض بين الآيات، وإبهام المعنى، وركاكة الأسلوب، إلى جانب ما يسمى بالأخطاء العلمية واللغوية والتاريخية...

أما مشكلات أفق التوقعات فتندرج تحت مفهوم أنه لا يليق بالله أن يقول كذا، أو أن الله لو كان صاحب هذا الكتاب لكان قال كذا أو فعل كذا...!

كل هذا في إطار الرد، لكن دعونا -أولاً- نسأل سؤالاً أقدم من مناقشة هذه الاتهامات.. لقد آمن من آمن بالقرآن قبل أن تكون هناك اتهامات، ويبدو أن

---

[1] الآيتان ٢، و٣ من سورة النجم

شيئًا ما جعل هؤلاء يقتنعون بعدم إمكانية أن يكون هذا النص منتجًا محسوبًا على محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وسلم–، ولم تقنعهم هذه التحليلات التي نسمعها اليوم عن سعة اطلاعه على المصادر الدينية السابقة له، كذلك لم يروا أن النص مبهم بالنسبة إليهم، وحتى باعتبار أن لفظًا لم يفهمه عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–، كما سنورد فيما بعد، ليس جديرًا بالحكم على النص كله بالإبهام!!

تُرى ما الذي أقنع هؤلاء بنسبة هذا النص إلى الله، وقطعًا لا بد أن نطرح السؤال العكسي: لماذا لم يقتنع الآخرون؟

ولتكن البداية بالسؤال الأخير: لماذا لم يقتنع الآخرون؟ لماذا لم يحدث إجماع من هذا المجتمع على الدين الجديد؟ وماذا كانت اعتراضاتهم؟

يمكن أن نأتي بالاعتراضات من القرآن نفسه.. ولكن كيف وأنتم لا تصدقون أنه من عند الله؟ ألا يمكن اعتبار القرآن نصًّا تاريخيًّا؟ ألا تُجمع الادعاءات على أن القرآن منسوب إلى محمد نفسه، ليس باعتباره نبيًّا، ولكن باعتباره مدعيًا!! ألم تكن هذه الادعاءات على أسماع العرب جميعًا؟ ولم يقل حتى أصحاب المصالح منهم: لا لم يحدث هذا، لم نقل عنه إنه ساحر، ولم نقل إنه شاعر، ولم نقل إنه مجنون، ولم نقل: "لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ"[1]... للأسف لم نسمع إنكارهم، ولا يسعنا قبول افتراض أن

[1] من الآية ٣١ من سورة الزخرف

هذا لم يحدث، ولكن وابتعادًا عن الجدل حول القرآن كمصدر تاريخي، فسنلقي نظرة من خارجه على موقف العرب غير المسلمين منه، وسنجد هذه النظرة واضحة في موسوعة عالم الأديان، نقلاً عن كتاب "صانعو التاريخ العربي" لفيليب حتي، فتقول: "وكان القرشيون ينظرون نظرة إكبار إلى تعاليم النبي –صلى الله عليه وسلم–، عن الكرم والعطاء، لأن الكرم من الفضائل العربية، ولكن النظرة الدينية الجديدة إلى أن الإنسان مجرد وكيل على ثروته وأملاكه، وأن للفقير حقًا في هذا المال وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥[1]، لم تكن بالنظرة التي تقبّلها الناس برضى. وإلى جانب هذا، فإن تعاليم النبي –صلى الله عليه وسلم– تُحلّ الإيمان محل النسب كرابطة تربط الإنسان بأخيه: إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠[2]، وهذا من شأنه أن يقوّض الأسس القديمة للعائلة، وللعصبية القبلية، ويحل محلها الوحدة والرابطة الدينيتين. وهكذا أدركت قريش أن إذا حالف النصر الديني رسالة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، فإنه سينتصر أيضًا سياسيًّا، وبهذا يكون قد ألحق بسلطتها بعض الإجحاف. من هنا كانت معارضتها الشديدة له تتصاعد يومًا بعد يوم"[3].

---

[1] الآيتان ٢٤، و٢٥ من سورة المعارج

[2] الآية ١٠ من سورة الحجرات

[3] موسوعة عالم الأديان– المجلد ١٧– ص ٢٣، نقلاً عن فيليب حتّي– صانعو التاريخ العربي– ص٢٠

ولم يتحرج المسلمون من نقل عداء المشركين في مكة للنبي -صلى الله عليه وسلم- واضطهاده لهم، ونقلوا قدرًا لا بأس به من الاتهامات للنبي، لم يتحرج القرآن ذاته من ذكرها وتعديدها في مواضع عدة، ولكنها خلت جميعًا من انتقاص من قدر القرآن كنص، أو اتهامه بكونه باطلاً!

نعود إلى: لماذا أسلم هؤلاء واقتنعوا أن ما يقوله محمد بن عبد الله ليس من تأليفه، وصدقوا أنه من الله -سبحانه وتعالى-؟ وهنا سأكون مضطرًّا لأنقل كلام المسلمين، لأني أناقشهم، وسأكتفي فقط بذكر نص ما قاله جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- في حواره للنجاشي ملك الحبشة، وقت هجرة الحبشة الثانية، يقول: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله.."[1].

---

[1] سيرة ابن هشام، ج١ ص٣٣٦-٣٣٧

إن هذه المعايير المضمونية الواضحة المتعلقة بمفهوم الدين التي ذكرها جعفر بن أبي طالب –رضي الله عنه– كافية لتتسق مع التحليل السابق الذي نقلناه من موسوعة عالم الأديان نقلاً عن فيليب حتّي، وبالإضافة إليها، وعلى المستوى اللغوي العام، قبل أن ندخل في التفاصيل، يقول عبد القاهر الجرجاني في الإجابة عما أعجز العرب في القرآن: "أعجزهم مزايا ظهرت في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيهِ ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعُشرًا عُشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكَر شانُها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى، أو أخلق، بل وجدوا اتساقًا به العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا، لم يدعْ في نفس بليغ منهم، ولو حَكَّ بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خَرِست الألسن عن أن تَدَّعي وتقول، وخَذِيَت القُروم فلم تملك أن تصول"[1].

هيا ندخل إلى التفاصيل ونحلل الاتهامات:

القرآن مأخوذ من قصص الأقدمين!!

---

[1] عبد القاهر الجرجاني– دلائل الإعجاز– ص ٣٩

يشيع هذا الاتهام جدًّا بين باحثين ومتخصصين، ويتهمون القرآن حتى بالجهل في هذا النقل، فلم يلتزم بالمنقول منه، ولم يكتفِ هؤلاء بالإشارة إلى الكتب المقدسة والأساطير القديمة فقط، بل تجاوزوا ذلك إلى أشخاص معينين كأمية بن أبي الصلت مثلاً، وغيره من الأشخاص، وذكر القرآن مثل هذه الاتهامات في قوله: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾"[1]!

وقد يكون تعليق الدكتور طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" كافيًا لدحض هذه التهمة من حيث التعليق عليها، رغم أن من المعروف عن الدكتور طه حسين أنه لم يكن رجل دين، بل إن كتابه هذا أحدث أزمة في الأوساط الدينية بشكل كبير.. يقول الدكتور طه حسين حول ما أثير من كون شعر أمية بن أبي الصلت من مصادر القرآن: "وزعم الأستاذ كليمان هوار -في فصل طويل نشرته المجلة الآسيوية سنة ١٨٠٤- أنه قد ظفر من ذلك بشيء قيم، واستكشف مصدرًا جديدًا من مصادر القرآن، هذا الشيء القيم وهذا المصدر الجديد هو شعر أمية ابن أبي الصلت. وقد أطال الأستاذ هوار في هذا البحث، وقارن بين هذا الشعر الذي يُنسَب إلى أمية ابن أبي الصلت وبين آيات من القرآن، وانتهى من هذه المقارنة إلى نتيجتين: الأولى أن هذا الشعر الذي يُنسب لأمية ابن أبي الصلت صحيح، لأن هناك فروقًا

[1] الآية ١٠٣ من سورة النحل

بين ما جاء فيه وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص، ولو كان منتحلاً لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن، وإذا كان هذا الشعر صحيحًا، فيجب في رأي الأستاذ هوار أن يكون النبي قد استعان به قليلاً أو كثيرًا في نظم القرآن.

الثانية أن صحة هذا الشعر واستعانة النبي به في نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية ابن أبي الصلت ومحوه ليستأثر القرآن بالجدة، وليصح أن النبي قد انفرد بتلقي الوحي من السماء، وعلى هذا النحو استطاع الأستاذ هوار -أو خيل إليه أنه استطاع- أن يثبت أن هناك شعرًا جاهليًّا صحيحًا، وأن هذا الشعر الجاهلي قد أثر في القرآن!

ومع أني من أشد الناس إعجابًا بالأستاذ هوار، وبطائفة من أصحابه المستشرقين وبما ينتهون إليه في كثير من الأحيان من النتائج العلمية القيمة في تاريخ الأدب العربي وبالمناهج التي يتخذونها للبحث، فإني لا أستطيع أن أقرأ مثل هذا الفصل الذي أشرت إليه آنفًا دون أن أعجب؛ كيف يتورط العلماء أحيانًا في مواقف لا صلة بينها وبين العلم؟"[1]

ويستكمل الدكتور طه حسين تعليقه المنطقي والعقلي على مثل هذه الآراء: "والغريب من أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون في صحة السيرة نفسها ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرون في السيرة

---

[1] في الشعر الجاهلي- د. طه حسين- ص ٨٢، و٨٣

مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعًا: طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق ليمتاز صحيحها من منتحلها.

هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة ويُغلون في هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية ابن أبي الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة! فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون النحو الآخر؟ أيمكن أن يكون المستشرقون أنفسهم متعصبين لم يبرؤوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات؟"[1].

أما فيما يتعلق بمضمون الاتهام نفسه، فيقول الدكتور طه حسين، ولم يكن الكتاب أو الكلام كله في سياق الدفاع عن القرآن أو الإسلام، وإنما هو بحث علمي يتعلق بالشعر في المقام الأول والأخير: "ولست أدري قيمة من هذا النحو من البحث، فمن الذي زعم أن ما جاء في القرآن من الأخبار كله كان مجهولاً قبل أن يجيء به القرآن؟ ومن الذي يستطيع أن ينكر أن كثيرًا من القصص القرآني كان معروفًا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه

---

[1] المرجع السابق ص ٨٣

عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أن يعرفه النبي، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي من المتصلين بأهل الكتاب"[1].

فالأمر على هذه الحالة إذن لم يكن خفيًّا، وكان العرب يعرفون هذه القصص القديمة، وكان اليهود والمسيحيون يعيشون في داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها، وقطعًا كانوا سيسمعون بهذا، وبما جاء في القرآن من جدل موجه لهم، لم يكن من الممكن أن يستقيم إلا في وجودهم، وقد انقسم المخالفون على طائفتين في الجدل مع الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والعجيب أن اليهود والنصارى لم يحتجوا عليه بأنه نقل منهم أو أخذ كلامهم! والطائفة الأخرى من المشركين تعاملت مع هذه القصص باعتبارها خرافات وأساطير، ولكنها ومن العجيب أيضًا لم تتهمه بأنه مؤلفها!! "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥"[2]، فزعموا أن هناك قومًا آخرين أعانوه على هذا، وأنهم يُملون عليه، دون إشارة إليهم، مما يدل بالقطع على تأكدهم من أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- ليس مؤهلاً لكتابة هذه القصص إلا باعتباره وسيطًا، وهو ما فسره القرآن بمعرفتهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- قبل البعثة: "وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن

---

[1] المرجع السابق ص ٨٥، و٨٦

[2] الآيتان ٤، و٥ من سورة الفرقان

قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾"[1]، وبما أنهم لا يؤمنون بالله، فالمصدر مجهول، وفي هذا إقرار بأن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- وسيط/ رسول، لكنهم لا يريدون أن يسلموا بذلك، ولعل ما أوردناه في مقدمة مناقشة السؤال ما يبرر موقف هؤلاء المشركين!

ولكن كيف نصدق أن القرآن كلام الله وهو يحتوي على أخطاء لغوية ساذجة؟

من اللافت للانتباه أن محاولة البحث عبر الإنترنت عن "الأخطاء اللغوية في القرآن"، ستفاجئك بعدد كبير جدًّا من النتائج، وسترى مقالات وفيديوهات لا حصر لها لهؤلاء!! في حين تكتشف -إن بحثت- أنه لا وجود لهذه الأخطاء اللغوية فى الحديث النبوي! وكأن النص الوحيد الذي يحتوي على أخطاء في هذه الفترة هو القرآن فقط، في حين تخلو أقوال محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ -رضى الله عنهم- ... بل وحتى أبي جهل وأبي لهب والوليد بن المغيرة، بل وحتى يهود المدينة... من الأخطاء اللغوية!!!

كتاب واحد فقط في هذه الفترة هو الذي يحتوي على أخطاء في اللغة العربية التي هي روح المجتمع وقوامه، وفي وجود البدو الذين هم لسان اللغة وعمادها!!

---

[1] الآية ١٠٢ من سورة العنكبوت

كتاب واحد فقط يحاربه ناس ويموت من أجله ناس، ويختلف الناس حول مصدره: هل هو من الله أو أن محمدًا بن عبد الله شكل لجنة من خبراء التاريخ والعلماء لوضعه على هذا النحو: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥"[1]، ولكنهم لم يفطنوا إلى أخطائه اللغوية الكفيلة بالقضاء على الرسالة من جذورها!!!

بل الأكثر عبثًا من هذا.. لماذا لم يصحح حسان بن ثابت –مثلاً– هذه الأخطاء اللغوية الموجودة فى كتابه المقدس؟ (يرجى ملاحظة أن أحدًا لم يكتشف خطأ لغويًّا واحدًا في قصائد حسان بن ثابت مما يدل على أن مستواه اللغوي كان جيدًا إلى حد ما!!!!)

أنا هنا لا أستشهد بكلام الوليد بن المغيرة عن القرآن وثنائه عليه، ولا أستشهد بكلام القرآن عن نفسه، وإهانته لفصاحة العرب بتحديهم وإعجازهم ببلاغته، وبيان عدم قدرتهم على الإتيان بمثله (حتى ولو اجتمعت الإنس والجن) أو بعشر سور مثله (حتى وإن كانت هذه السور مفتريات) أو حتى سورة واحدة!!!! أتصور أن هذا الاستفزاز لفصاحة العرب ما كان يمكن أن يمر مرور الكرام إلا مع عجزهم الحقيقي عن ذلك وبغض النظر عن عبثية فرضية الأخطاء من غيرها.

---

[1] الآيتان ٤، وه من سورة الفرقان

إذن، فما هذا الذي يحدث في القرآن من إتيان الكلمات على غير العادة في سياق النحو؟

إن هذا بعينه هو الإبداع: خلاف العادة، ومفارقة المألوف.. لو كان المسيح -عليه السلام- قدّم وصفة دوائية لعلاج الأكمه والأبرص، فماذا سيكون ما قَدَّمَه إلا مهارة في الطب؟ لو كان موسى -عليه السلام- أمر اليهود بتجهيز سفينة سرًّا حتى يهرب بها من فرعون، فماذا سيكون إلا استراتيجيًّا ماهرًا؟ وماذا لو خضع أي إبداع للمألوف والتزم باتباع قوانينه؟!

إن تعريف البلاغة العربية الذي صاغه عبد القاهر الجرجاني، وتناقلته الأجيال بقبول تام إلى الآن، وهو "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"، إنما يكشف عن إجابة كثير من هذه الألغاز التي طُرحت عبر مقالات وفيديوهات الناقدين للغة القرآن، وفي تعريفه يتضح أنه يدل على أن السياق/ المعنى هو البطل الحقيقي لصياغة اللغة، وبالتالي يكون السؤال: هل اتسق اللفظ القرآني مع المعاني التي قصدها؟

يتوهم كثيرون أن "محمد جاء" تساوي "جاء محمد"، وليس هذا حقيقيًّا، فالحقيقي أنهما معنيان مختلفان، ولكل منهما رسالة محددة، صحيح أننا في النهاية نفهم أن شخصًا اسمه محمد قام بفعل المجيء، ولكن لكل منهما إشارة إلى محيط الموقف/ السياق الذي يتم وقت الجملة! فالجملة الأولى "محمد جاء"، لا تعكس أن من يقولها كان ينتظره، في حين أن الثانية توحي بهذا المعنى، فلم يكن التقديم والتأخير في اللغة تنويعًا أو عبثًا قط، وإذا كنا قد

أهملنا هذه الإشارات، وخلطنا بين المعاني والمواقف والسياقات، فإن هذا ليس مسؤولية اللغة وإنما مسؤولية المتحدثين بها!

"إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾"[1]، لو قالها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أمام مدرس أو حتى طالب في كلية متخصصة ربما كان قد علق عليها، وقال له: "والصابئين"، لأنها معطوفة على اسم إن، ولكن أصحاب اللغة وأفذاذها لم يطالبوه بذلك، لأنهم جديرون بمعرفة العلة، والعلة في المعنى/ السياق، وليس في اللفظ، فلم يكن القرآن مجبرًا على أن يقولها بهذا الشكل، وربما كانت الصحة اللغوية الأقرب أن يقولها بالنصب وليس بالرفع، ولكن هل تستوي الفئات الأربع المذكورة في السياق؟ هل كلها منتسبة إلى إبراهيم –عليه السلام–؟ أليس هؤلاء الصابئون مختلفين نسبيًّا عن اليهود والنصارى، فيكون تمييزهم منطقيًّا وبديهيًّا بالنسبة إلى المستمعين؟

إن القرآن لم يكن كتابًا يبحث عن موقعه في مجال الصحة اللغوية، وإلا لكان أي شخص معاصر جديرًا بأن يتخذ موقعه في سياق الصحة دون جهد، ولكنه جاء معجزًا بمثل هذه الالتفاتات السياقية والاستخدامات الجديدة المراعية للسياق، والتي أعادت تشكيل اللغة لتكون كاشفة عن سياقات ضمنية موازية للنص!

---

[1] الآية ٦٩ من سورة المائدة

ودليل آخر على قيادة السياق للغة، وليس العكس: قول الله تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ"[1]، وقوله في آية أخرى: "وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾"[2]، والإملاق هو الفقر، فالذين هم فقراء "من إملاق" إنما ينشغلون بواقعهم في المقام الأول، فطمأنهم الله على واقعهم قبل مستقبلهم ومستقبل ألادهم "نرزقكم وإياهم"، والذين يخشون الفقر "خشية إملاق"، ينشغلون بالمستقبل وهم مطمئنون إلى الواقع، فطمأنهم على المستقبل الذين يخشونه قبل واقعهم: "نرزقهم وإياكم"!

وعلى هذه الشاكلة برزت البلاغة القرآنية ليس على مستوى الزخرف اللفظي، وإنما على مستوى المعنى/ السياق، فكانت "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" المقصد الذي تشكلت اللغة لخدمته، و لم تكن اللغة هدفًا في حد ذاتها! وليس هناك أي داعٍ لاستقصاء الأخطاء المزعومة في القرآن ومناقشتها، إذ في كتب إعراب القرآن على كثرتها ما يكفي إذا كان هناك باحث أمين يسعى إلى اكتشاف الصواب وليس مجرد الترديد، وإنما اكتفيت هنا بالجانب العقلي للمسألة ومجرد الاستشهاد عليه، والقرآن كله مثال على ذلك!

---

[1] من الآية ١٥١ من سورة الأنعام

[2] الآية ٣١ من سورة الإسراء

وماذا إذن عن الأخطاء العلمية في القرآن؟ وهذا مما لن ينتهي القول فيه أبدًا، وكلما ستخرج نظرية علمية جديدة، سيسعى بعض المسلمين إلى إثبات أن هذه النظرية ذكرها القرآن قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، وسيسعى غير المسلمين إلى تكذيب هذا والتشكيك فيه وربما في النظرية نفسها!

وقبل أن أتناول بعضًا مما قيل في هذه الاتهامات، أطرح سؤالين أعتقد أنهما مهمان في سبيل بيان هذه المسألة: هل كل ما يتعلق بالعلم في القرآن خطأ؟ وهل القرآن كتاب علوم؟

وفي السؤال الأول لن أستدل بالأمور الصحيحة في القرآن لأهدم الاتهامات، فهذا ليس منطقيًّا، ولكني أبحث فقط عن الافتراض العكسي للافتراض الذي يحمل اتهامًا للقرآن.. بمعنى: بافتراض أن القرآن يحتوي أخطاء علمية، فالنتيجة أنه ليس كتابًا من الله، وأقول: نعم، إذا كان القرآن يحتوي على أخطاء، فالنتيجة أنه ليس كتابًا من الله! وأضيف إلى هذا الافتراض سؤالاً عكسيًّا: إذا كان في القرآن معلومات علمية سليمة لم يكن من الممكن إتاحتها في هذا العصر، فمن أين جاء (مؤلف القرآن) بهذه المعلومات؟

وبالنسبة إلى السؤال الثاني، فالقرآن ليس كتاب علوم، ولهذا فهناك اعتراضات كثيرة من علماء مسلمين على ربط القرآن (الثابت) بالنظريات العلمية (المتغيرة)، وهذا من نتاج هوس بعض المسلمين، الذين عرّضوا القرآن لمثل هذا اللغط، وادعوا أن القرآن كتاب علوم!! إذن فهل أنفي عن القرآن هذا الأمر؟ لا، فالقرآن أشار إلى العلوم وتناولها وتعامل معها، وهو في هذه

السياقات لم يتحدَّ البشر، بقدر ما عَرَّفَ عن قدرته -سبحانه وتعالى-، والحقيقة أن شرط المعجزة التحدي، فإذا قام أحد العلماء باختراع أو اكتشاف فإنه لا يكون معجزة، إلا إذا تحدى الآخرين فيه أو تحداه الآخرون فيه، لأن شرط المعجزة بالبديهة ألا يستطيع الآخرون فعلها وقد طُلب إليهم ذلك!

ولهذا كان القرآن معجزة لغوية وأسلوبية: طُلب من العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة أو بعشر سور مفتريات، ولم يستطيعوا، فأعجزهم، وأقام عليهم الحجة!!

الآيات إذن فيما يتعلق بالعلم لم تكن كما يُطلق عليها "الإعجاز العلمي"، ولم تخرج عن كونها إخبارًا عن أمور، منها ما كان في الماضي: " ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢"[1]، ومنها ما أصبح في المستقبل: "الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤"[2]، ومنها ما لم يكن الرسول مطلعًا عليه: "وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ

---

[1] الآية ١٠٢ من سورة يوسف

[2] الآيات من ١ إلى ٤ من سورة الروم

ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣"[1]، ومنه ما جاء في سياق مخاطبة الله تعالى للناس، وتذكيرهم بنعمه عليهم أو بمعرفته بهم، ومنه ما جاء إشارة إلى ما لا يعلمه الناس في أسلوب ذي أوجه متعددة، ليناسب طبائع العصور، وهنا تأتي الأزمة من المفسرين، رغم عظمة قدرهم واجتهادهم، فقد أضافوا معرفتهم إلى النص، ولم تكن معرفتهم مؤهلة حينها لفهم مدلول الآيات، ولست أفهم علميًّا -في هذا السياق- إصرار المتهمين للإسلام على الوقوف عند هذه التفسيرات ورفض تجاوزها بحجة أنهم أقرب إلى عصر القرآن وأدرى به وأكثر إلمامًا بغاياته، بالإضافة إلى نقل التفسيرات والاجتهادات الواردة من الصحابة المعاصرين للنبي -صلى الله عليه وسلم- رغم بديهية عدم إلمامهم العلمي بتلك الأمور!! ولنقرب الصورة أكثر، يقول الله -سبحانه وتعالى-: "وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١"[2]، فحين يأتي المفسرون والمجتهدون على هذه الآية، وأشير منها إلى "وسرابيل تقيكم الحر"، فإننا نجد شبه إجماع على تقدير "البرد"، معطوفًا على "الحر"، بأحد اعتبارين: أن ما يقي من الحر يقي من البرد، فذكر واحدة ودل بها على الأخرى، والاعتبار الثاني أن الحر أهم

---

[1] الآية ٣ من سورة التحريم

[2] الآية ٨١ من سورة النحل

بالنسبة إلى شبه الجزيرة العربية، فكان ذكر الحر أوقع في نفوسهم لبيان نعمة الله عليهم! والحقيقة أن الاعتبارين محترمان ومقدران في ظل المعرفة العلمية المتاحة في هذا التوقيت، والآية –على أحد هذين الاعتبارين– لن تسبب مشكلة في الفهم في زمن المفسرين! ولكن إن أتاح العلم لنا أن نعرف أن الشعور بالحر ينتج من أثر خارجي، والشعور بالبرد ينتج من أثر داخلي وهو فقد حرارة الجسم، وأن الملابس لا تقي من البرد، وإنما تحافظ على درجة الحرارة الداخلية للجسم، بدليل أن الملابس تكون باردة بعيدًا عن أجسامنا، وحين نرتديها فإن درجة حرارتها تزيد بناء على ما تكتسبه من حرارة أجسامنا، فتكون الآية غير مربكة للواقع الذي نزلت فيه، ولم تتجاوز الإشارة العلمية التي وصلنا إلى حقيقتها بعدهم بقرون!!

ولننظر في آية أخرى، يقول الله –سبحانه وتعالى–: "فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥"[1]، وبحسب ما قرأت عبر الموقع الإلكترونية وشاهدت عبر اليوتيوب، فإن في الآية إشكالين وليس واحدًا:

– لماذا سيحاسبنا الله وهو من يهدي ويضل؟

– قضية نقص الأكسجين في السماء لم يتعرض لها القرآن!!

---

[1] الآية ١٢٥ من سورة الأنعام

وحتى لا أبدو هاربًا أو متجاهلاً للاتهامات، أخرج عن سياق الجانب العلمي، وأقول عن الإشكال الأول في عجالة: ليس في الآية إخبار عن أمر محدد، ولكن إعلام عن طبيعة القدرة، وبيان لنفاذها، فالله إذا أراد أن يهدي شخصًا، فإن الهداية تكون بهذه الطريقة، وإذا أراد أن يُضل شخصًا فإن إضلاله يكون بهذه الطريقة: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠"[1]، فواضح بما لا يقبل الجدل أن ابتداء أمر الهداية أو الضلال إنما يكون من الشخص نفسه، وليس مجرد إرادة، ولكن لا يتصورَنّ الضال أنه يفرض إرادته على الله أو يقوم بأشياء رغمًا عن الله -سبحانه وتعالى-، ولا يتصورَنّ المهتدي أنه يمن على الله بهدايته، بل الله يمن عليه أن هداه إلى الإسلام: "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧"[2]، فكل مايقع في ملك الله لا يخرج عن مشيئته/ إذنه/ قبوله/ إمهاله/ تدبيره... سَمِّها ما شئت!

أما فيما يتعلق بالناحية العلمية في الآية، فهل تعرّض الله -سبحانه وتعالى- لموضوع نقص الأكسجين في الارتفاعات أم لا؟ لن ينتقص من قدر القرآن

---

[1] الآيات من ٥ إلى ١٠ من سورة الليل

[2] الآية ١٧ من سورة الحجرات

ألا يكون قد تعرض لهذا الموضوع، فالقرآن ليس كتاب علوم كما ذكرنا من قبل، ولكنه في الحقيقة تعرض لهذا الأمر فعلاً!

وليس خلو كتب التفسير القديمة من ذكر لهذا الأمر دليلاً على أي شيء، فالمفسرون القدامى إنما قدموا جهدهم وفق معرفتهم المتاحة في هذا التوقيت، ولا يمكن أن يُعاب ذلك عليهم، حتى أن تأويلهم للتَّصَعُّد في السماء بـــ"الصعود إلى السماء)، وكانوا مضطرين ليتأولوا معنى الآية باعتبار أن حرف الجر "في" تحول إلى "إلى"، فبدا لهم أن الشبه هو استحالة الصعود "إلى" السماء.

ولا تجد في التفسيرات التراثية تأويل لهذا الحرف الذي يتناول بوضوح الإشارة إلى حالة ظرفية في السماء وليس الصعود إليها! الآية تتحدث بوضوح عن صاعد "في" السماء، وليس عن صاعد إليها!

وعلى كل، فالأخطر من إثبات "الإعجاز" هنا هو بيان ما يُسمّى بالأخطاء أو مخالفة العلم (نظريات أو حقائق) في آيات أخرى، فكثيرون يتكلمون عن خطأ وظيفة خلق النجوم (المذكورة) في القرآن: "وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾"[1]، فيقولون إن النجوم ليست للاهتداء فقط، ويمكن الآن الاستغناء عنها في هذا الأمر بأبسط الاختراعات الإلكترونية الحديثة، وهم محقون في هذا،

---

[1] الآية ٩٧ من سورة الأنعام

لكن القرآن لم يقصر وظيفتها على هذا الأمر، والناظر في السياق العام للآيات يكتشف بالآية السابقة عليها فقط أن الله –سبحانه وتعالى– يقول: "فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾"[1]، فهل وظيفة الشمس والقمر هي الحسبان والزمن فقط، أم أن لهما وظائف كثيرة في حفظ حركة ونظام الكون؟

إنها القضية الشائكة التي تربط كل قضايا "الإعجاز" أو "الأخطاء" معًا بخيط رفيع.. إنها قضية التواصل، واللافت أننا نتفق على أن من لوازم فك شفرة أي تواصل أن نفهم الرسالة والمرسل والمستقبل.. لا يمكن فهم القرآن أو أي نص آخر باستبعاد أحد عناصر المنظومة.. كما لا يمكن فهم القرآن باقتطاع سياقاته ونصوصه وعزلها عن محيطها الاجتماعي، وعلى سبيل المثال، فإن قول الله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾"[2]،

فالإشارة فيها إلى أن للسحاب وزنًا وثقلاً، لم يكن يمكن أن يفهمه العرب، فالإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه الآية في كتابه "التفسير الكبير"، ناقش المسألة فقال: "واعلم أن هذا أيضًا من دلائل القدرة والحكمة، وذلك لأن هذه الأجزاء المائية، إما أن يقال: إنها حدثت في جو الهواء، أو يقال إنها

---

[1] الآية ٩٦ من سورة الأنعام

[2] الآية ١٢ من سورة الرعد

تصاعدت من وجه الأرض، فإن كان الأول وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب، وإن كان الثاني، وهو أن يقال: إن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض، فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض فنقول: هذا باطل، وذلك لأن الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة، وتارة تكون صغيرة، وتارة تكون متقاربة، وأخرى تكون متباعدة، وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانًا طويلاً، وتارة قليلاً، فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة، وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار"!!

و لم يتعرض الإمام لوزن السحاب أو ثقله، ولا سابقوه من المفسرين كذلك.. فهل هذا يعد تقصيرًا منه أو من سابقيه، أو يعد اجتهادًا وفق معطيات العصر؟ وهل كانت هذه الألفاظ مربكة للمستقبل المعاصر؟ وهل كانت مفتقرة لدقة الإشارة التي تحيل فهمنا إلى ما يصل العلم إليه الآن باكتشاف أن السحابة المتوسطة تبلغ نحو مليون طن؟! إن السحاب الذي ترونه الآن في جو السماء محلقًا في الهواء إنما هو ثقيل جدًّا وقد تصل وزن السحابة المتوسطة إلى ستة آلاف حوت أزرق!! هل كنتم تتوقعون أن تكون هذه الجملة إحدى الجمل الموروثة أو المقدسة المنقولة عن هذا العصر؟!!

إن محاولات إلصاق صفة المخترع والمكتشف بالله -سبحانه وتعالى- في القرآن ولي أعناق الآيات لإجبارها أن تتحدث بالعلم، إنما أضر بالإسلام أيما

ضرر، ولكن هذا لا يعني أن القرآن خلا من الإشارات، ولعلها اللحظة التي ينبغي أن نفهم فيها القرآن لا أن نستنطقه، وأن نحترم اجتهادات المفسرين القدامى مع الأخذ في الاعتبار المعرفة العلمية المتاحة في عصورهم!

ولتبدأ دراسات جديدة وموضوعية ومنطقية للقرآن دون أحكام مسبقة!

أما فيما يتعلق بأكبر شاهد يسوقه المشككون في الإسلامو هو مراحل تكون الجنين في قوله تعالى: "وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤"[1]، وفي هذا الشاهد يقع القرآن بين الإعجازيين من ناحية والمفسرين والعلم الحديث من ناحية أخرى، فكل ما شاهدته من فيديوهات ضد الآية إنما تعتمد على أقوال المفسرين، وأغلبها أقحمت الأحاديث في الأمر للنَّيل من الدين بالكامل! فما بين تفسير العلقة بالدم الجامد، والأحاديث التي تتناول المدد التي تستغرقها هذه المراحل، والكلام عن تحديد نوع المولود وعلاقته بماء الرجل... بالإضافة إلى معطيات العلم الحديث التي لا تتسق مع هذه المراحل، وفق ما يرى كثيرون، بين كل هذا يقع اللبس في فهم الآية وعلاقتها بالواقع!

---

[1] الآية ١٤ من سورة المؤمنون

تشير الآية إلى أن الإنسان كان نطفة، ثم علقة، فمضغة، فعظامًا، فكسيت العظام لحمًا، ثم أنشأه الله خلقًا آخر.. والحقيقة أن الجنين يمر بالفعل بمراحل داخل رحم أمه، والحقيقة أيضًا أن هذه المراحل تبدأ بالنطفة التي تنطلق في مراحل متعددة، وهذا ما لا ينكره العلم الحديث، ولكن تأتي مرحلة العلقة ليحدث الاشتباك، فما المقصود من العلقة؟ يقول الطبري في تفسير الآية: "يقول: ثم صيرنا النطفة التي جعلناها في قرار مكين علقة، وهي القطعة من الدم"، في حين ترد مادة "علق" في لسان العرب على هذا النحو: "عَلِقَ بالشيءِ عَلَقاً وعَلِقَهُ: نَشِب فيه؛ قال جرير: إِذا عَلِقَتْ مُخَالَبُهُ بِقَرْنٍ، أَصابَ القَلْبَ أَو هَتَك الحِجابا، وفي الحديث: فَعَلِقَت الأَعراب به أَي نَشِبوا وتعلقوا، وقيل طَفِقُوا؛ وقال أَبو زبيد: إِذا عَلِقَتْ قِرْنًا خَطَاطيفُ كَفِّهِ، رأَى الموتَ رَأْيَ العينِ أَسودَ أَحمر وهو عالِقٌ به أَي نَشِبٌ فيه".. حتى أن توجيه العلاقة بين كلمة "علقة" ودودة العلقة على الشبه الشكلي بين هذه المرحلة والدودة، قد يكون غير مقصود على هذه الصورة (الشكلية)، فدودة العلقة كما جاء في حياة الحيوان الكبرى: "دود أسود وأحمر يكون بالماء، يعلق بالبدن ويمص الدم"، وقد يتشابه الجنين من حيث الفعل في هذه المرحلة مع دودة العلقة، حيث يعلق بالرحم ويتغذى منه، فحتى لو لم تتجاوز التفسيرات مفهوم العلقة باعتبارها الدم الجامد، فليس هذا دليلاً على توجيه الآية على هذا المعنى دون غيره!

لم يكن من الممكن تفسير القرآن في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإلا لفعل هو ذلك بنفسه، وبالتالي لا يمكن قياسًا تفسير القرآن في زمن آخر، أو إن شئت الدقة، لا يمكن القطع بتفسير القرآن وفق معرفة زمنية محددة! فحين تقول الآية، "فكسونا العظام لحمًا"، لا يمتنع إلى جانب التفسيرات الواردة والأقرب للغة أن يكون هناك عظم تم كسوته باللحم، كما لا يمتنع أن يكون الأمر مجرد وصف، كما في قوله تعالى: "ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥"[1]، فهل كان قبل الاستواء إلا استواء؟ فالآية ليست في سياق الإخبار عن الكيفية ولا عن الزمن، و لم تتعدَّ الوصف المباشر والحالي فقط.. وفي قوله تعالى: "ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ"[2]، قال ابن كثير: "قَوْلُهُ: بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ: أَنَّهُمْ قَالُوا: لَهَا عَمَد وَلَكِنْ لَا تُرَى، وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ، يَعْنِي بِلَا عَمَدٍ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِالسِّيَاقِ"[3].. فالفهم المختلف من العلماء والمجتهدين دليل على أن المعرفة الزمنية المتاحة تتدخل بقوة في فهم النص.

---

[1] الآية ٥ من سورة طه

[2] من الآية ٢ من سورة الرعد

[3] تفسير ابن كثير ٤٢٩/٤

وبالعودة إلى آية تكون الجنين، فإننا إزاء فهم خاص ومحدد لها من المفسرين الأجلاء وفق معرفتهم الزمنية المتاحة، لكنها ليست الفيصل في الأمر وليست الحجة على النص، تمامًا كما لا تكون النظرية العلمية حجة على العلم في حد ذاتها، بمعنى أن المعرفة الزمنية المتاحة لنا في هذ العصر تُخبر عن أن العظام واللحم يتكونان في نفس اللحظة، رغم أن إشارة النص في الآية ليست مقصورة على الفارق الزمني، ولكن ماذا لو حدث بعد بضع سنين على سبيل المثال أن تم تطبيق تقنية الفيمتو ثانية، فاكتشفنا أن فارقًا ضئيلاً بينهما، فنعود إلى الفهم القديم للنص؟! وهنا تبدو لي مشكلة مهمة على الجانبين: بالنسبة إلى الجانب الديني الذي يعتمد على النتائج العلمية (نظريات أو حقائق) لزيادة اليقين في الدين، ولدعم إيمان الناس به: إلى أي مدى تخاطرون بالناس وبإيمانهم إذا اصطدم العلم بفهم النص؟ وكيف يستقيم أن يعالج الأمر متخصص في الدين بمعزل عن العالم المتخصص في الأمر، أو يعالج الأمر عالم متخصص بمعزل عن السياقات اللغوية والدينية؟ وبالنسبة إلى جانب المشككين: ماذا ستفعل مع الإشارات العلمية المحققة الموجودة في القرآن، كالإشارة إلى فتق السماء، وتوسع الكون، ومراكز الحس في الجلد، والبحر اللُّجِّيّ...؟

ولن أذهب بعيدًا قبل أن أجيب على عدة أسئلة سريعة شاهدتها في كثير من الطرح الموجود عبر الإنترنت:

إذا كان القرآن أتى بكل هذه النظريات، فلماذا لم يخرج المسلمون بنظرية علمية واحدة منه؟

وأنا هنا أتفق مع مقصد السؤال تمامًا، فهذا إدانة مطلقة للمسلمين، والمسلمون بالفعل (كدول وليس كدين) مقصرون تمامًا من الناحية العلمية، وإن شئت الدقة، فقل: الدول العربية، أو قل دول العالم الثالث.. وإن شئت الدقة أكثر، فقل: هذه الدول بعد الاحتلال التركي العثماني لها، وقبل أن تنهض أوربا (المسيحية) من عصور الظلام القصوى التي لم تتخلص منها إلا بالتخلص من سطوة الكنيسة!! نعم، إننا مدانون تمامًا، وأقول هذا دون أعذار، وأقول لك لماذا؟ لأن كثيرين من علماء الدين أرهبوا العلماء، كعادة علماء الدين والكهان في مختلف الديانات، ولأن هناك حظرًا فُرض على الاجتهاد فيما يخص الدين أو حوله، ولأن هناك اتهامات جاهزة بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، كما كان عند غيرنا الاتهامات بالهرطقة، وأدعو الله أن يخلصنا من هذا كما خلصهم، كما أدعو الله أن نلتزم بالإسلام حقًّا لنعتذر عن استحقاقنا لهذا السؤال!!

القرآن لم يأت بالجديد، وما جاء فيه موجود في الحضارات القديمة والأديان السابقة!!!

كان مما ذكرتُه في السابق استشهاد من كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين، لا داعي لإعادة نصه ويمكن الرجوع إليه، كان محتواه سؤال مهم: من زعم أن القرآن قال هذا؟ وهل كان إله محمد -صلى الله عليه وسلم- إلهًا

جديدًا على البشر كان عليه أن يفعل هذا، أو أنه هو هو -سبحانه وتعالى- الإله الواحد الذي أرسل الرسل عبر تاريخ الإنسانية بمادة واحدة ومعلومات واحدة وكون واحد؟ إنه الإله الذي نؤمن بأنه خلق آدم وأرسل نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وآخرين نؤمن بأنه أرسلهم وأرسل آخرين لم يَقُصَّهُمْ علينا في القرآن!

انظر إلى ماذا نؤمن.. إننا نؤمن بقول رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، حين تحدث إلى فرعون وقومه بحديث لم يقله موسى -عليه السلام- نفسه لفرعون، ولم نقل إن موسى لم يأت بجديد: "وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ۝٣٤"[1]، والحضارات القديمة لا يستحيل أن تكون متأثرة بالأديان السابقة عليها، فكل حضارة كانت متأثرة بنبي، ولم تكن بدعًا من التاريخ الإنساني الذي لم يلبث أن ظل متصلاً مترابطًا عبر العصور!

[1] الآيات من ٣٠ إلى ٣٤ من سورة غافر

والقرآن لم يُخبر عن ذلك، بل أخبر عن العكس، ويكفي أن تنظر في آيات "ألم يروا..."، و"ألم تر..."، و"ألم ير..."، لتدرك أن إشارات القرآن تثبت أن المرسل هو الإله الذي تعرفونه، وبالتالي فالآيات إثبات لذلك، ولم تزعم الآيات أنه إله جديد، فإذن كان عليه أن يخبرنا عما لا نعرفه ولم نسمع عنه، وهذا ليس الله!!

تناقض آيات خلق السموات والأرض في القرآن!!

"قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾"[1].

"ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾"[2].

---

[1] الآيات من ٩ إلى ١٢ من سورة فصلت

[2] الآيات من ٢٧ إلى ٣٢ من سورة النازعات

ما الذي خلقه الله أولاً: السموات أم الأرض؟ أولاً دعك من نظرية الانفجار العظيم، فلن أحاول أن أقارن الآية بها أو أقارنها بالآية، ولست مشغولاً على الإطلاق بإثبات التوافق أو نفيه، أنا هنا أتحدث منطلقًا من الآية التي تتناول مراحل الخلق وليس كيفيته!

حين يقول الله تعالى "خلق الأرض"، فإن هذا يعني أنها لم تكن موجودة، فالله خلقها، كما خلق آدم ولم يكن موجودًا، فمادة "خلق" كما جاءت في المعجم الوسيط تعني صنع وأبدع، فالآية هنا تتحدث عن صنع الأرض وإبداعها، كان هذا الخلق في أربعة أيام بإضافة جعل الرواسي ومباركتها وتقدير أقواتها... ويبقى السؤال: متى تم هذا بحسب الآية؟ هل بعد السماء أو قبلها؟ والإجابة القاطعة: خلق الله السماء قبل خلق الأرض! هل هذا ما تقوله الآية؟ نعم، تقول الآية "ثم استوى إلى السماء"، فكيف استوى إليها قبل أن يخلقها؟ فمعنى أنه استوى إلى السماء أنها كانت قد خُلقت، بالإضافة إلى قوله "وهي دخان"، فكانت السماء قد خُلقت واكتملت، وتهيأت لخطاب الله – سبحانه وتعالى– لها وللأرض: "ائتيا طوعًا أو كرهًا"، فلم يقل الله خلق الأرض في أربعة أيام ثم خلق السماء في يومين، كما رتب بدقة في الشاهد الثاني "والأرض بعد ذلك دحاها"، فقال "بعد ذلك" أي بعد السماء! إنها إذن قضية لغة، وتبيانها في الفارق بين كلمتي "خلق الأرض"، و"استوى إلى السماء"!

أمر آخر جدير بالإشارة: ما اليومان الآخران اللذان ذكرهما الله "فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها"؟

هناك فارق دقيق في القرآن بين كلمتي "السماء"، والسماوات":

"الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماءَ بناءً".. "وأنزل من السماء ماء".. لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض".. "قل من يرزقكم من السماء".. "ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء".. "ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء".. "وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا".. "وينزل من السماء من جبال فيها برد".. "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج"...

أما السماوات: ""ألم تعلم أن لله ملك السماوات والأرض".. "بديع السماوات والأرض".. "له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما".. "ولله ما في السماوات وما في الأرض".. "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب".. "وجنة عرضها السماوات والأرض".. "قل لمن ما في السماوات والأرض".. "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات".. "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها".. "تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن"...

أتصور أن من الواضح أن السماء ليست هي السماوات، فاليومان المذكوران كانا لقضاء السماوات السبع، لكن سماء الدنيا كانت قد استوت وأتت طائعة لله -سبحانه وتعالى-، ويكون الإشكال قد زال، واتضح الأمر على التالي:

خلق الله السماء، ثم خلق الأرض ومهّدها، ثم قضى السماء سبع سموات، وهذه السماوات خلقها الله طباقًا، وليست متصلة بالكون المنظور الخاص بنا، حتى أن الله تعالى أوضح هذا بمنتهى الدقة: "زينا السماء الدنيا بمصابيح"، فلم يزين السموات بالمصابيح، ولم يُرِ إبراهيم ملكوت السماء، ولكن ملكوت السماوات، ولم يَبْنِ السماوات، بل السماء...

هكذا أرجو أن تكون السياقات متضحة أكثر!!

إذن، فقضايا التوفيق بين العلم والكتب المقدسة أو تخطئة هذه الكتاب لحساب العلم واستنادًا إليه، فهي من الأمور التي لا يمكن الوثوق فيها بالشكل الكامل، ولكن إن كان غير المتدينين يحترمون العلم والأمانة العلمية، وإذا كان المتدينون يقدسون مرجعياتهم الدينية، فإن الأمر في حاجة إلى مزيد من البحوث الأمينة والصادقة فيما يتعلق بهذه الإشكاليات!

obeikan.com

الإسلام والإرهاب

أنت مسلم؛ إذن أنت إرهابي!!!!

بعد مجهود ضخم ومبالغ فيه في كثير من الأحيان، تم تثبيت هذه المقولة باعتبارها واقعًا ثابتًا؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأصبح الإرهاب وجه العملة الثاني للإسلام!

المجهود الذي أقصده هنا هو أفعال بعض المسلمين وكذب ومبالغة وتدليس بعض المشككين.. نعم، لأول مرة في هذا الكتاب أتحدث عن الكذب والتدليس؛ ذلك أن كثيرًا مما شاهدته وقرأته لم يكن له أدنى علاقة بالأسس العلمية، وللمرة الأولى كذلك في هذا الكتاب، سأتخلى عن موقف المدافع قليلاً إلى منصة الاتهام، فالخلاف مقبول على إطلاقه بالنسبة إليّ، ولكن مع احترام التّماس ولو بشكل طفيف مع المنهج العلمي!

لم أجد –للأسف– دراسة واحدة من هؤلاء لأي سياق يعتبرونه دعوة للقتل في أي نص للقرآن، ولنقدّم لهم هذه الدراسة؛ عَلّها تكون معينًا لهم إن أرادوا أن يفهموا ما في القرآن، أو عَلّها تكون مادة أخرى لنقاشاتهم!

وردت مادة الفعل "قتل" بمشتقاتها المختلفة في القرآن ٩٨ مرة، وأقول بمشتقاتها المختلفة، لأنها جاءت في أزمنة الماضي والمضارع وجاءت في صيغ الاستفهام الإنكاري والتعجبي في مواضع.. المهم أن المادة نفسها وردة في ثمانية وتسعين موضعًا من مواضع القرآن، كما وردت مادة الفعل "قَاتَلَ"

بمشتقاتها المختلفة أيضًا اثنتين وخمسين مرة، والفارق بين المادتين أن الأولى "قتل" لا تستلزم المشاركة، في حين تستلزم الثانية "قَاتَلَ" المشاركة بين طرفين.

ويمكن الاكتفاء بالأوامر المباشرة للرسول -صلى الله عليه وسلم- بالقتل أو بالقتال، ولكن دعونا أولاً نسرد بعض الاستشهادات في سياقات مختلفة، حتى تتضح الفكرة التي أبني عليها هذا الجزء من الكتاب:

يقول الله -سبحانه وتعالى-: "عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ"[1]، وقال أيضًا: "ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ"[2]، وقال في موضع آخر: "إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ"[3]، وقال كذلك: "يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ"[4]!!!!!

هل فاجأتك هذه الاقتباسات؟ أستطيع أن أزيدك منها الكثير، ولكن لا تُفاجَأ، فإن هذا الأمر يحدث يوميًّا وعلى كل الاتجاهات فيما يخص اتهام الإسلام بالإرهاب، وأستطيع أن أكتفي فقط بذكر مواضع الاتهام، ثم ذكر السياق الكامل للآيات موضع الاتهامات، وهي وحدها كفيلة بالشرح، لكن

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٣٠ من سورة التوبة

[2] اجتزاء آخر مُخِلّ من نفس الآية ومن نفس السورة

[3] اجتزاء مُخِلّ من الآية ١٠٣ من سورة النحل

[4] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٦٤ من سورة المائدة

حتى لا أقوم بوضع خطوط تحت كلمات محددة في الآيات الكريمة، فسأقوم بالتأكيد عليها في التعليق على كل آية:

الآية الأولى في لائحة الاتهامات: "وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ"[1].

السياق: "وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾[2].

توضيح السياق: من نقاتل يا رب؟ "الذين يقاتلونكم"، هل نقاتلهم لو لم يقاتلونا؟ "ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"، وماذا نفعل في قتالهم يا رب؟ "أخرجوهم من حيث أخرجوكم"، هل نقاتلهم في كل مكان يا رب؟ "ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه"، فإن لم يقاتلونا يا رب؟ "فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين" وماذا نفعل معهم يا رب؟ هل

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ١٩١ من سورة البقرة

[2] الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٤ من سورة البقرة

نبيدهم في القتال؟ هل نحرق بيوتهم؟ هل نُمَثّل بجثثهم؟ هل نقتل الرجال والنساء والأطفال والرضع والبهائم والأغنام؟! "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين"!

عن أي دموية يتحدث هؤلاء المهاجمون للإسلام؟!

الآية الثانية في لائحة الاتهامات: "فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ"[1]. وفي السياق نفسه آية أخرى على لائحة الاتهامات: "فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾"[2].

السياق: "فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٨٩ من سورة النساء

[2] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٩١ من سورة النساء

وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١"[1].

يقول أبو الطيب المتنبي: "وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشْياءُ"، وبهذا سندخل إلى فهم السياق، فلن نسأل: من نقاتل يا رب؟، ولكننا سنسأل حتى نجيب عن السؤال: من الذين لا نأخذهم ونقتلهم حيث نجدهم يا رب؟ "الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق".. هذه واحدة.. "أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم".. هذه ثانية.. "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم"!!!

على من تنطبق هذه الآية أو هذا الأمر إذن؟ على الذين لم يكن بيننا وبينهم ميثاق، و لم يتحرجوا من قتالنا، و لم يعتزلونا، و لم يلقوا إلينا السلم!!!!!

الآية الثالثة في لائحة الاتهامات: "فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ"[2].

السياق: "وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ

---

[1] الآيات من ٨٨ إلى ٩١ من سورة النساء

[2] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٥ من سورة التوبة

إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧"[1].

من الذين لا نقاتلهم من المشركين يا رب؟ "الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا ولم يظاهروا عليكم أحدًا" وبالعودة إلى المتنبي: "وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ"، فإنه يتضح مَن المقصود من "المشركين" المذكورين في الآية، فهناك مشركون على عهدهم، وهنا أمرنا الله: "فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم"، وفي الآية الأخيرة: "فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم"، وهناك مشركون طلبوا حماية النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهؤلاء أمره الله -سبحانه وتعالى- أن يحميهم "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون"، وهناك المشركون الآخرون الذين لم يلزموا عهدهم وكلمتهم أو ظاهروا وساعدوا أعداء

[1] الآيات من ٣ إلى ٧ من سورة التوبة

المسلمين عليهم، وهؤلاء كان الأمر بقتالهم وقتلهم!! أليس الأمر مجرد أمر بالدفاع عن النفس؟! إنها الدموية الثالثة!!

الآية الرابعة في لائحة الاتهامات: "وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ"[1].

السياق: "فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤"[2].

لماذا يا رب يحرض النبي –صلى الله عليه وسلم– المؤمنين على القتال؟ "عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا"!!!

حتى الآية الأخرى التي ذكر الله فيها التحريض: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥"[3].. فسياق التحريض واضح منه أنهم الفئة القليلة، والفئة القليلة التي تخشى على نفسها من الهزيمة ومن فارق العدد بينها وبين أعدائها ليس هي من تبدأ الاعتداء، فلم تخرج الآية أيضًا عن سياق التشجيع لمواجهة الظالم ورد أذاه، وليس فيها أي أمر بالابتداء!

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٨٤ من سورة النساء

[2] الآية ٨٤ من سورة النساء

[3] الآية ٦٥ من سورة الأنفال

فقط؟ نعم، فقط!! حتى التحريض يا رب ظَهَرَ أنه التشجيع لدفع الأذى وليس الابتداء به؟ سبحانك!!

الآية الخامسة في لائحة الاتهامات: "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ"[1]..

وقبل أن نسرد سياق الآية، نسرد أن الاتهامات كلها اعتمدت أن معنى "يثخن" هو المبالغة في القتل، وفسرت أن الآية عتاب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أسر المشركين وأنه كان ينبغي عليه -صلى الله عليه وسلم- أن يقتلهم.. وبعد أن نسرد السياق سنسرد المعاني المتعددة لهذا الفعل، ثم نعلق على هذا الفهم.

السياق: "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٧١"[2].

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٦٧ من سورة الأنفال

[2] الآيات من ٦٧ إلى ٧١ من سورة الأنفال

جاء في لسان العرب في معنى الفعل "أَثْخَنَ": "وقال أَبو إِسحق في قوله تعالى: حتى يُثْخِنَ في الأَرض معناه حتى يُبالِغَ في قَتْلِ أَعدائه، ويجوز أَن يكون حتى يتمكن في الأَرض.

والإِثْخانُ في كلّ شيء: قُوَّتُه وشدَّتُه، وفي حديث عمر، رضي الله عنه، في قوله تعالى: حتى يُثْخِنَ في الأَرض ثم أَحَلَّ لهم الغنائمَ، قال: الإِثْخانُ في الشيء المبالغةُ فيه والإِكثارُ منه. يقال: قد أَثْخَنَه المرضُ إِذا اشتدَّ قُوَّتُه عليه ووَهَنَه، والمراد به ههنا المبالغةُ في قَتْل الكفار، وأَثْخَنَه الهَمُّ". لسان العرب. انتهى.

يتضح من هذا الاستشهاد أن فيه شيئين: معنى اللفظ، وفهمه في السياق، فمعنى الفعل مجردًا عن الاستخدام هو القوة والشدة والمبالغة، وقد فهموا أن المراد هو هذه المعاني في القتل، لكن أبا إسحاق -بحسب كلام ابن منظور في لسان العرب- أورد أنه "يجوز أن يكون حتى يتمكن في الأرض"، وهنا نعود إلى السياق: لو افترضنا أن الأمر كان عتابًا للرسول -صلى الله عليه وسلم- على عدم قتل الأسرى، وأن هذا كان هو الصواب.. انظروا معي في السياق إلى قوله -سبحانه وتعالى-: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ".. ألم يكن الأولى أن يقول له: يا أيها النبي اقتل من في أيديكم من الأسرى؟!! لماذا عاتبه إذن على عدم قتل الأسرى ولم يأمره بقتلهم وبين الأمرين آيتان فقط؟!!

إن الأمر متعلق بتعمد الأسر، حيث تبع المسلمون المشركين بعد هزيمتهم في بدر، وأسروا منهم، ثم بقبول الفداء قبل أن يبيحه الله -سبحانه وتعالى-،

وعلى هذا كان النص واضحًا على هذين المعنيين: " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ"، والنص الآخر: "لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾"، ومع وجود الأسرى كان أمر الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يخاطبهم، ويقول لهم: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾".. وكان الأولى على السياق المفترض للآية أن يأمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- بتحذير هؤلاء الأسرى على الأقل من مصير القتل في المرة القادمة!!

الآية السادسة في لائحة الاتهامات: "قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾"[1].

وليس في هذا الآية اجتزاء مُخِلّ، كما كنت أرصد في كل الاتهامات السابقة! هل ستعترف إذن بأن الإسلام يأمر بالقتل على أساس الاختلاف في الدين؟! كنت سأعترف لو كان حقيقة، فأنا لا ألوي عنق النص لينطق بما أريد، وحاشا لله -سبحانه وتعالى- أن أفعل هذا! لقد بدأت كلامي عن فارق جوهري وأساسي بين الفعلين: قَتَلَ وقَاتَلَ، والأمر في الآية هنا "قَاتِلُوا" وليس

---

[1] الآية ٢٩ من سورة التوبة

"اقتلوا"، وكما أشرنا فإن الفعل "قاتل" يقتضي المشاركة، فلم يكن النص في أي حاجة إلى ذكر أي مبررات، لأن القاعدة الأساسية في "القتال" ومن الذين "نقاتلهم"؟ جاءت في قول الله -سبحانه وتعالى-: "وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠"[1].

لماذا خص الله أهل الكتاب في هذا الآية إذا كانت القاعدة مذكورة في سياق آخر؟ والإجابة ببساطة، لأن الآية هنا تقدم حكمًا جديدًا، وهو حكم الجزية الذي لم يكن موجودًا قبلها!

وحول أمر الجزية أقول في عجالة: تفرض الجزية على "كل كتابيّ عاقل بالغ حر ذكر متأهب للقتال قادر على أداء الجزية، أما الصبي والمرأة والعبد والمجنون فهم أتباع، ولا جزية عليهم"[2]. وهي مقابل الحماية، وإذا عجز المسلمون عن الحماية سقطت الجزية، كما أسقطها عمر عن ملك شهربراز، وخالد بن الوليد عن أهل حمص، وأبو عبيدة عن أهل دمشق، ومعاوية عن أهل أرمينية، وقد سجل البلاذري في "فتوح البلدان"، ما أورده الطبري في تاريخه من معاهدة خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف "إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة... فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم".

---

[1] الآية ١٩٠ من سورة البقرة

[2] الوجيز في فقه الإمام الشافعي ص ١٩٧

الآية السابعة في لائحة الاتهامات: "فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢"[1].

السياق: "إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢"[2].

ألا يبدو السياق موجهًا للفئة المضطربة؟ أليس أمر الله -سبحانه وتعالى- للملائكة بتثبيت الذين آمنوا دالاً على اضطراب هؤلاء المؤمنين أمام الطفار الذين يفوقونهم عددًا وعتادًا وكل شيء؟! إنه أمر الله أن يرى هؤلاء الكفار الشدة والغلظة في وجوه المؤمنين وأدائهم في الحرب، وهو الحل الوحيد لإحداث التوازن في هذه المعركة التي كان المؤمنون فيها الطرف الأقل والأضعف!

لم يكن الأمر كما يصورونه كأمر للمؤمنين بقتل المخالفين لهم، ولكنه كان محصورًا في سياق حرب غير متكافئة، وتابع معي الآية التالية في سياق الاتهامات لتتضح بها الصورة أكثر.

الآية الثامنة في لائحة الاتهامات: "فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ"[1].

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ١٢ من سورة الأنفال

[2] الآية ١٢ من سورة الأنفال

السياق: "فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤"[2]، وفي هذه الآية يبدو واضحًا تمامًا أن السياق سياق حرب، فكل هذه الأوامر موقوتة "حتى تضع الحرب أوزارها"، فليست إذن في سياق السلم بأي حال من الأحوال، وهنا أيضًا تشريع الأسر ليكون بعده المن أو الفداء، فهل المطلوب في سياق الحرب أن يتهاون المقاتل مع الذي يقاتله؟ إن حق الدفاع عن النفس حق بديهي؛ لم يتجاوزه الإسلام في أي أمر من أوامره التي تشرّع القتل والقتال!

لا أتصور أن الاتهامات بدموية الإسلام صالحة للاستهلاك الآدمي بعد مجرد الاطلاع على السياقات الكاملة للقرآن فحسب!!

الآية الأخيرة في لائحة الاتهامات: "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ"[3].

السياق: "إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ

---

[1] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٤ من سورة محمد

[2] الآية ٤ من سورة محمد

[3] اجتزاء مُخِلّ من الآية ٦٠ من سورة الأنفال

فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١"[1].

توضيح السياق: نقض العهد والخيانة هما ما يستدعي إعداد القوة لترهيب العدو وردعه، ولكن إن جنح هذا العدو للسلم، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون من ورائه مأمورون بالجنوح للسلم أيضًا، ما يكشف عن أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين رد فعل فقط لفعل العدو، وليسوا بادئين بالعدوان على الإطلاق!!

إذا نقلوا لك من القرآن فحسبك أن تقرأ ما قبل نقلهم وبعده، لتتضح الحقيقة!!

[1] الآيات من ٥٥ إلى ٦١ من سورة الأنفال

الإسلام والجنس

ينبني ربط الإسلام بالجنس على عدة أمور: زيجات النبي -صلى الله عليه وسلم- وما روي عن بعضها في كتب السيرة، وملك اليمين بالنسبة إلى المسلمين، والوعد بالحور العين في الجنة، وفتاوى الشيوخ فيما يخص علاقة المرأة بزوجها...

أما فيما يخص زيجات النبي -صلى الله عليه وسلم- أو كما يطلقون عليها "علاقاته النسائية"، فمن الضروري أن نؤكد هنا على الخيارات المتاحة له -صلى الله عليه وسلم- في عصره.. ولا أقصد هنا الخيارات النسائية، بل أقصد الخيارات الأخلاقية، وتحديدًا ما قاله جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- في حواره للنجاشي ملك الحبشة، وقت هجرة الحبشة الثانية، يقول: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا،

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله"[1].

كيف قدّم محمد نفسه إلى المجتمع الذي عاش فيه؟ قال لهم: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ"[2].. فما الذي وَرَّطَه في هذا إذا كانت أقوال المتهمين فيه صادقة؟ ولماذا لم يحتج أحد من أتباعه أو خصومه على أخلاقه، خصوصًا وأنهم يقرؤون ويسمعون مدحًا فيه من ربه: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾"[3]؟ وهل من العقل إذن أن يصفه أتباعه والمحيطون به بالأوصاف التالية: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ"[4]؟ فهل كان المجتمع مراقبًا لسلوكه وتصرفاته؟ وهل كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يراعي هذا المجتمع؟ تأمل معي الحديث التالي، لتعرف إجابة هذين السؤالين: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَسْرَعَا فَقَال النَّبِيُّ

---

[1] سيرة ابن هشام، ج١ ص٣٣٦-٣٣٧

[2] رواه أحمد في مسنده ٨٧٢٩، وابن سعد في الطبقات ٤٦٨، والبخاري في الأدب ٢٧٣، والحاكم في مستدركه ٤١٨٧، وغيرهم

[3] الآية ٤ من سورة القلم

[4] صحيح البخاري ٦١٠٢

-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فَقالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قال: شَيْئًا"[1].

هل إلى هذه الدرجة يفسر الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه تصرفاته وسلوكياته مستخدمًا لفظة "خشيت"؟! هل بالفعل يخشى النبي -صلى الله عليه وسلم- من ظن السوء من أصحابه، فيخبرهم عن المرأة التي معه؟! نعم، إن هذا هو المجتمع الذي بناه محمد -صلى الله عليه وسلم-.. مجتمع يسأل ويستفسر ويبدي رأيه ويناقش، وهذا ما أشرنا إليه بالطاعة المبصرة المستنيرة في بداية الكتاب، والقصص واضحة وكثيرة وكثيفة في ذلك، منها مكان المعسكر في غزوة بدر، ومعارضة عمر لصلاة النبي -صلى الله عليه وسلم- على ابن سلول، ومعارضة علي -رضي الله عنه- لمحو صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- من وثيقة صلح الحديبية... ولكننا لم نسمع عن اعتراضهم على أي جانب من أخلاقياته وسلوكياته -صلى الله عليه وسلم-، رغم أنه مجتمع ناقد كما تبين فيما سبق!

يبدو إذن أن هذه الاتهامات والأقاويل والتفسيرات متأخرة عن هذا العصر، ولعل أسوأ وأشهر اتهام يوجه للنبي -صلى الله عليه وسلم- هو زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله عنها-، والروايات عن أنه -صلى الله

---

[1] صحيح مسلم ٢١٧٥

عليه وسلم- رآها حاسرة فوقعت في نفسه، فسعى إلى تطليقها من زيد (كما يروّجون) ليتزوجها هو!!

وبداية، فإن هذه الروايات كلها لم تثبت من أي وجه صحيح، وضَعَّفَها علماء الأحاديث والسند كثيرًا عبر العصور، وكونها وقعت في كتب السير أو التفاسير، فإن هذه الكتب ليست ذات بال كبير فيما يتعلق بالصحيح من عدمه، خصوصًا المتقدم منها، حيث كانت تجمع دون تدقيق أو مراجعة! ولكن الأهم من هذا أن سياق الآية يكشف استحالة صدق هذه الروايات، من زوايا عديدة!

يقول الله تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا

ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾"[1].

الناس في هذا الأمر صنفان: صنف يؤمن برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعلى هذا يكون مؤمنًا بأخلاقه وسلوكياته ويصدق هذا القرآن الذي نزّهه وطهّره.. وصنف آخر يتهم محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، وهو بالتالي لا يصدق أنه موحى إليه من ربه، ويعتقد أن هذا القرآن صياغة بشرية منه أو ممن عاونوه على هذا! المهم أنك إما تؤمن بالقرآن كوحي من الله وإما لا تؤمن به، ولا يمكن الجمع بين الاحتمالين.. وأنا هنا في سياق مناقشة الاتهامات فأنا أتوقع من الذين أقدم لهم هذا الكتاب أنهم يرون أن القرآن صياغة بشرية مزعومة، وعلى هذا الأساس أناقش الاتهامات:

إذا كان محمد بن عبد الله قد ألف هذا القرآن، فلم وصف هذه القصة بحذافيرها، في حين أن بقية زيجاته الأخرى لم يتناولها فيه؟ فمثلاً لم يبرر بنص قرآني زواجه من السيدة عائشة -رضي الله عنها- وهي كما تزعمون صغيرة قاصرة غير مؤهلة للزواج، فلم يقل فيها نصًّا يوحي بأنه نفذ أمرًا إلهيًّا مثلاً!! -مرة أخرى كل هذه الافتراضات باعتبار أن النص القرآني ليس وحيًا-، ثم هناك عدة أمور كاشفة عن المعنى في سياق الآيات: الأمر الأول: ألم يكن من البديهي أكثر أن يعتمد على الآية الأولى في هذا السياق: " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ

---

[1] الآيات من ٣٦ إلى ٤٠ من سورة الأحزاب

وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا"، ثم ينفرد بزيد، فيقول له: يا زيد، إن الله قضى أن تطلق زوجتك، فطلقها! أو يقول له: يا زيد، إن الله يرضى عن رغبتك في طلاقها! أو يقول له يا زيد: لقد قضى الله أن يختبرك بطلاق زينب، فطلقها!

لم يكن الأمر يستدعي هذا الذكر على هذا النحو في القرآن على الإطلاق، وكان يمكن الاكتفاء بالآية الأولى في السياق!

الأمر الثاني: ليس الأمر فقط في طلاق زيد وزينب -رضي الله عنهما-، ولكن زواج النبي -صلى الله عليه وسلم- من زينب يفترض أحد أمرين: إما أن تقبل زينب وإما أن ترفض، بمعنى آخر: إما أن تكون زينب -رضي الله عنها- مشتركة وموافقة على هذا التخطيط الذي يقوم به النبي -باعتباره ليس نبيًّا طبعًا-، وإما أن تكون غافلة عن هذا، وعلى الافتراض الأول، فكان يمكن أن تقوم زينب بالدور الكامل في الأمر فتضغط على زيد حتى يطلقها، دون أن يحتاج الأمر إلى ذكر في القرآن أو نحوه، فالطلاق لم يكن بدعة في حياة العرب ولا حياة المسلمين! وعلى الافتراض الثاني، باعتبارها غير عالمة بالأمر/ الخطة/ المؤامرة، فإن موقفها لم يكن مضمونًا من قبول أن يطلقها زيد، فكان يمكن لها أن تتمسك به وأن تذلل الصعوبات التي تواجه حياتهما!

الأمر الثالث: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الآية الأولى في السياق التي نهت عن الاعتراض على قضاء الله ورسوله جاء أمره بأن يُمسك زيدٌ زوجه،

وأن يتقي الله، بدلاً من أن يقول له حتى: "أنت حر"، أو "افعل ما تريد"، أو "أنا أقبل قرارك"... أي جملة تقرّب زيدًا من الطلاق لا تبعده عنه!

الأمر الرابع: قال الله في السياق السابق: "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ"، فهل كان ما أخفاه النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أنه اشتهاها؟ للإجابة عن هذا السؤال ننظر إلى ما أبداه الله، فالمفعول به للفعل "تُخفي"، هو نفسه (في المعنى) المفعول به لاسم الفاعل "مبديه"، فما أبداه الله هو ما أخفاه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو طلاق زينب من زيد -رضي الله عنهما-، فحين قلتَ يا محمد لزيد "أمسك عليك زوجك واتق الله" أخفيت في نفسك أن هذا الزواج سينتهي لا محالة، وأنك ستكون النموذج الذي يشرع زواج الآباء من زوجات أدعيائهم، إذا طلقوهن: " فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾"، ثم بقية الكلام في السياق عن هذا التشريع، ولم يذكر الله -سبحانه وتعالى- أو يُبدي أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- اشتهى زينب، أو رآها، أو أعجبته...

إذا كنت معتقدًا بأن محمدًا قد ألف القرآن، فإنه لم يكن مضطرًّا على الإطلاق لذكر هذا السياق بهذا الشكل، ولا حتى أن يلمح له من قريب أو بعيد، وكان يمكن الاكتفاء بتشريع إبطال التبني، ثم البناء عليه في الزواج والميراث وكل هذه الأمور...

وإذا كنت مقتنعًا بأن القرآن من عند الله، فإن الله -سبحانه وتعالى- قد أبدى ما أخفاه نبيه -صلى الله عليه وسلم- في نفسه، و لم يكن فيما أبداه الله أي علاقة بالاشتهاء أو رغبة النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الخصوص!!

وبالانتقال إلى نقطة أخرى لا تقل خطورة وشراسة عن النقطة السابقة، فإن كثيرًا من المقالات والفيديوهات ترى أن عدد زيجات النبي -صلى الله عليه وسلم- تدل على شهوة كبيرة من جانبه للنساء، وكثيرًا من الردود التي تتعلق بأن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي زوجه لا تجد في نفوس أصحاب الاتهامات أي صدى، فكيف لا يؤمنون بنبوته ثم يصدقون أن الله هو الذي زوجه، سواء كانوا أهل كتاب لا يؤمنون بنبوته، أو ملحدين لا يؤمنون بالله -سبحانه وتعالى- من الأساس؟

فالحوار المبني على العقل إذن هو السبيل الوحيد لمناقشة القضية، بحيث نصل إلى كلمة سواء فيه. ولتوضيح صورته الكاملة، أحيلكم هنا إلى المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد الصادرة عن دار الكتاب اللبناني -بيروت، العبقريات، عبقرية محمد، المجلد الأول، بدءًا من ص ٩٩، تحت عنوان "الزوج"، وبدءًا من ص ١١٠ تحت عنوان "تعدد الزوجات"، وأحب أن أنوّه هنا إلى أن ما سأذكره اقتباسًا منه سيكون مُخلاً في توصيل منطقه ومنهجه بالكامل، وكنت أحب أن أنقل النص بالكامل، ولكن حتى لا تزيد

عدد الصفحات أكثر مما ينبغي، فسأكتفي ببعض الاقتباسات، ولا أظنني سأحتاج إلى تعليق بعدها!

"هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الدف الثاني الذي يرميه المشهرون بالإسلام، فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام، وذكروا منها ما يزعمونه منافيًا لشمائل النبوة، مخالفًا لما ينبغي أن يتصف به هُداة الأرواح.. السيف والمرأة! كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبي بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء".

"قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية".

"ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرًا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها؛ هذا سواء الفطرة؛ لا عيب فيه، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر بالأنثى، فهي العريزة التي تلهم الحي..."

"وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه، وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططًا في طِلابه، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة؛ يُعاب كما يُعاب الجور في جميع الطباع.. فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟ مَنْ مِنْ بناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخًا أعظم من تاريخ الدعوة

المحمدية والدول الإسلامية؟ ومن الذي يقول إن هذا عمل رجل مشغول؟ عَمَّ شغلته المرأة؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد في مسعاه؟ فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها ويعطي المرأة حقها، فالعظمة رجحان وليس بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب. ورسالة محمد إذن هي الرسالة التي يتلقاها أناس خُلقوا للحياة ولم يُخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها. فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور!

وأعجب شيء أن يقال عن النبي إنه استسلم لِلَذَّات الحس، وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها!"

"نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات... أهذا فعل رجل يستسلم لِلَذَّات حسه؟ أما كان يسيرًا عليه أن يفرض لنفسه ولأعله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يُغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله؟!!

وماذا كلفه من الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط في ميله إلى النساء؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه؟"

"وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المُشَهِّرون من مؤرخي أوربا، فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم.. نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك، ويقنع من هذا بمعيشة الفقراء، ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!!

ونرى رجلاً تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التي يتحلين بها لعينيه، ثم يقال إنه رجل غلبته لَذَّات حسه!!

ونرى رجلاً آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التي كانت في وسعه، ثم يقال إنه رجل غلبته لَذَّات حسه!

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلامًا مضحكًا مستغربًا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح، أو لعله أقبح فلاح!!

ويزيد في غرابته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولاً قبل زواجه ولا بعد زواجه، فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع، فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يُعرف فتى من قريش وأهل مكة.

كان معروفًا من صباه إلى كهولته، فلم يُعرف عنه أنه استسلم لِلَذَّات الحس في ريعان صباه، ولم يُسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح.. بل عُرف بالطهر والأمانة، واشتهر بالجد والرصانة، وقام بالدعوة بعدها، فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات: تعالوا يا قوم، فانظروا إلى هذا الفتى الذي كان من شأنه كيت

وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات!! كلا.. لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يُحصى، ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل!!"

"ولما بنى بأول زوجاته -خديجة- لم تكن لَذَّات الحس هي التي سيطرت على هذا الزواج، لأنه بنى بها وهي في نحو الأربعين، وهو في نحو الخامسة والعشرين، ونَيَّفَ على الخمسين وأوتي الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة في الزواج بأخرى"

"ثم كانت سودة هي أولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفاة خديجة، وكان زوجها الأول -ابن عمها- قد توفي بعد رجوعه من الهجرة إلى الحبشة، وكانت هس من أسبق النساء إلى الإسلام، فآمنت وهجرت أهلها، ونجا بها زوجها إلى الحبشة فرارًا من إعنات المشركين له ولها، فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود إلى أهلها فتصبأ وتؤذى، أو تتزوج بغير كفؤ، أو بكفؤ لا يريدها، فضمها النبي إليه حماية لها وتأليفًا لأعدائه من آلِهَا، وكان غير هذا الزواج أولى به، لو نظر إلى لَذَّات حس ومال"

"وكانت للنبي زوجة أخرى وُسمت بالوضاءة والفتاء، وهي زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيدًا بن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها، لأنها أنفت -وهي ما هي في الحسب والقرابة من رسول الله- أن يتزوجها غلام عتيق..

هذه أيضًا لم يكن لِلَذَّات الحس المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما، ولو كان لِلَذَّات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهي تأباه، فقد كانت ابنة عمته؛ يراها من طفولتها، ولا يفاجئه من حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدًا وشدد عليها في قبوله.. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليها وإغلاظها القول له، كان زواج النبي بها حلاًّ لمشكلة بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق".

"... أم سلمة كانت كهلة مسنة سوم خطبها، كما قالت له معتذرة إليه لإعفائها من تكليف نفسه أن يتزوجها، جبرًا لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه في غزوة أحد.. ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلاً: سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك وأن يخلفك خيرًا.. فقالت: ومن يكون خيرًا من أبي سلمة؟ فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت في الاعتذار، وهما أعظم المسلمين قدرًا بعد النبي عليه السلام.

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا في غزوة بني المصطلق، فتزوجها النبي ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجًا عنهم وتألفًا لقلوبهم، فأسلموا جميعًا وحسن إسلامهم، وخيّرها أبوها بين العودة إليه والبقاء في حرم رسول الله، فاختارت البقاء في حرم رسول الله..."

وبعد أن استكمل الأستاذ العقاد سرده لحالات زواج النبي -صلى الله عليه وسلم- من بقية زوجاته -رضوان الله عليهم-، قال:

"وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هي صورة رجل فرغ لِلَذَّاته وجلس ينتقي واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع.. فإن كان الاختيار كله على حسب المصلحة الكبرى التي تقضي باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه، ولا استثناء في هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته، حتى التي بنى بها فتاة بكرًا موسومة بالجمال، وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-.

إلا أن المشهرين المتقولين نسبوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سُجلت لنا بأدق تفصيلاتها، ولم يذكروا إلا شيئًا واحدًا حرفوه عن معناه ودلالته، ليفتروا على النبي ما طاب لهم أن يفتروه، وذلك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات..

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق، في غير مشقة ولا معابة..

ونسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف في طلب الزواج الحلال، وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر والفتيات..

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين..

ونسوا أنه اختار أحسابًا في حاجة إلى التآلف أو الرعاية، ولم يختر جمالاً مطلوبًا للمتاع..

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تغليبِ لَذَّاتِ الحس لم يكن يشبع في بعض أيامه من خبز الشعير، ولم يجاوز حياة القناعة قط، لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما في يديه..

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه السلام.. فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها"

انتهى الاقتباس من كلام الأستاذ العقاد، وانتهى معه النقاش في هذه النقطة بالنسبة إليّ.

ننتقل الآن إلى الاهتمام بالإغراء بالجنس في الآخرة، بعد الاستئذان في تأجيل ما يتعلق بملك اليمين إلى عنوان الرق في الإسلام..

يقول الله –سبحانه وتعالى–: "إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)"[١]، ويقول أيضًا: "أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)"[٢].

يذكر القرآن بما لا يدع مجالاً للشك كل المواصفات المباشرة لوصف شجرة الزقوم وتقريبها من أذهان المخاطَبين، خصوصًا وهي خلق جديد لم يألفوه و لم يتعرفوا إليه، فكان من البديهي أن يذكر الله أوصافه، خصوصًا وأن الله –سبحانه وتعالى– فيما يتعلق بالحديث عن الجنة كان يذكر تفاصيل تقرب الصورة إلى أذهان المخاطَبين، حتى لو كان الوصف بالسلب أو النفي، كقوله –سبحانه وتعالى–: " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)"[٣]، وهي أوصاف تدل على

---

[١] الآيات من ٤٣ إلى ٤٦ من سورة الدخان

[٢] الآيات من ٦٢ إلى ٦٦ من سورة الصافات

[٣] الآية ١٥ من سورة محمد

تغير طبيعة هذه المواد واختلافها عن مثيلاتها في الدنيا، فالماء غير آسن، واللبن لم يتغير طعمه، والخمر لذيذ، والعسل مصفًّى...

وهكذا عودنا الله -سبحانه وتعالى- أن يذكر الأوصاف المميزة لنعيم الجنة.. أما في حور العين، فلم نَرَ أوصافًا لطبيعة هذا المخلوق إن كان مخلوقًا جديدًا، ونقل العلماء أوصافهم عنه من مرويات متناثرة، تحدثنا عن أن واحدة من هذه المخلوقات (النساء) لو بزقت في المياه المالحة لصارت عذبة، ولو في المياه العذبة لصار عسلاً، ولو أن إحداها/ن كشفت سوارها على السماء الدنيا لأطفأت نور الشمس والقمر!!! لم يذكر الله معجزات هذه المخلوقات وروعة خلقها إلا بأوصاف اختلف فيها الأقدمون والمحدثون، وإن شاع من آرائهم ما يؤكد الشهوة، وربما كان ذلك بسبب محاولة الكثيرين من الدعاة مخاطبة أفهام البشر بما يحلو لهم حاليًّا، حتى لو لم يكن فهمهم هو الفهم الوحيد المباشر من النص!

وكما اعتدنا أن يكون السياق الكامل للنص هو مرجعية الفهم، وإذا تعارض النص القرآني "المتواتر" مع نصوص السنة النبوية "الآحاد"، فإن كل المناج الأكاديمية العلمية تميل إلى الثقة في المتواتر على حساب الآحاد، وهذا هو المنضبط، خصوصًا لو وجدت أن كثيرًا من نصوص السنة تدخلت فيها أفهام الناقلين، أو تعارضت مع النصوص القرآنية!! وقبل أن ندخل إلى سياقات الآيات دعونا نتناول هذا الحديث الذي يُحتَجّ به في سياق الكلام عن حور العين كنساء في الجنة، ففي صحيح البخاري -كتاب فضائل الصحابة عن أبي

هريرة رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: "بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر قالوا لعمر فذكرت غيرته فوليت مدبرًا، فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟"!

وأنا أصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما قال إن قال، ولكن بما أني لم أسمع هذا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإني أعرضه على ما أثق أنه قاله وأبحث عن اتساقه مع النص المتواتر (القرآن).. فلا أعلم في الحقيقة كيف خرجت هذه المرأة (حور العين)، إذا كان النص القرآني يقول: "حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)"[1]؟ ولماذا تتوضأ في الجنة إذا لم يكن في الجنة تغوط ولا إخراج ولا ما شابه من نواقض الوضوء؟ وهل كان الوضوء للصلاة أم لغيرها والجنة دار جزاء وليست دار عمل؟! ولماذا كان الوضوء جانب القصر، وليس بداخله؟!! ويكفي فقط تعارض النص مع الآية القرآنية حتى نشك فيه أو في فهمه على الأقل.. فالنساء في الجنة يخرجن من القصور ويتوضأن ورآهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبالتالي لسن مقصورات في الخيام.. فإما أن ننكر الحديث ونرتاح وإما تنصرف كلمة (حور عين) في النص القرآني إلى غير النساء، وهذا هو ما سيكشفه السياق!

---

[1] الآية ٧٢ من سورة الرحمن

يقول الله تعالى: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)"[1].. ويقول أيضًا: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)"[2]، كما يقول: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ

---

[1] الآيات من ٥١ إلى ٥٦ من سورة الدخان

[2] الآيات من ١٧ إلى ٢٤ من سورة الطور

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)"[1].. ويقول -سبحانه وتعالى- كذلك: " وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ

[1] الآيات من ٤٦ إلى آخر سورة الرحمن

عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)"[١].

وبداية نذكر عدة ملاحظات هامة قبل أن ندخل إلى توضيح السياق:

– تؤنث اللغة العربية غير العاقل في السياقات المختلفة، فليس فيها ضمير لغير العاقل كما في الإنجليزية مثلاً، وبالتالي اختارت تأنيث غير العاقل، فتقول مثلاً: السيارات مسرعة بتاء التأنيث أو مسرعات بصيغة الجمع المزيد بالألف والتاء أو المسمى بجمع المؤنث السالم..

– جاء في مختار الصحاح مادة ز و ج : الزَّوْجُ البعل والزوج أيضا المرأة قال الله تعالى ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ويقال لها زَوْجَةٌ أيضا قال يونس ليس من كلام العرب زَوَّجَهُ بامرأة بالباء ولا تَزَوَّجَ بامرأة بل بحذفها فيهما وقوله تعالى ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ أي قرناهم بهن من قوله تعالى ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي وقرناءهم وقال الفراء تَزَوَّجَ بامرأة لغة وامرأة مِزْوَاجٌ بكسر الميم أي كثيرة التزوج و التَّزاوُجُ و المُزَاوَجَةُ و الازْدِواجُ بمعنى و الزَّوْجُ ضد الفرد وكل واحد منهما يسمى زوجًا أيضًا...

– في معجم اللغة العربية المعاصر تجد في مادة حور ما يلي: حور: مفرد حَوراءُ: نساء الجنّة: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾. حُور عين: نساءٌ بيض أو شديدات بياض العين مع شدّة سواد الحدقة، أو نساء واسعات العين مع

---

[١] الآيات من ١٠ إلى ٢٦ من سورة الواقعة

شدّة بياض لبياضها وسوادٍ لسوادها: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

في حين يأتي قول في منتهى الأهمية في مختار الصحاح في مادة حور: "قال الأصمعي ما أدري ما الحور في العين"!!

– جاء في تفسير ابن كثير لقوله تعالى: "وإذا النفوس زوجت" قوله: " وقوله (وإذا النفوس زوجت) أي جمع كل شكل إلى نظيره كقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) الصافات ٢٢.

ندخل إلى السياق:

أولاً: أكبر آية يُستدَلّ بها على أن حور العين هن نساء في الجنة هي قول الله تعالى: "وزوجناهم بحور عين"، ولفهم هذه الآية فقد أسلفت ذكر معنى الزواج في مختار الصحاح؛ علّها تبين المعنى أكثر.. فالتزويج في اللغة هو الإقران وهو الدال على الشراكة الاجتماعية في العلاقة المسماة بالزواج، وهو أيضًا الإقران بين طرفين، ولكن ما يلفت الانتباه في هذا الاقتباس هو قول يونس إن الفعل لا يتعدى بحرف الجر، ويلفتنا هذا إلى قول الله –سبحانه وتعالى– فيما يخص الزواج بمعنى النكاح من سورة الأحزاب "زَوَّجْنَاكَهَا"، فلم يقل "زَوَّجْنَاكَ بِهَا"، ومما لا يقبل الخلاف أن آية سورة الأحزاب إنما هي دالة قطعًا على الزواج بمعنى النكاح.. وعلى هذا، فيبدو دلالة "وزوجناهم بحور عين"، التي لا تنسحب بالقطع نفسه إلى معنى النكاح، فيسقط الاحتجاج بقطع الدلالة إلى النكاح، خصوصًا وأن القرآن في غير موضع

الأحزاب إنما اكتفى بلفظة النكاح ومشتقاتها في الدلالة على الزواج والتزويج.. وهو اللفظ الذي لم يستخدم في هذا السياق.

ثانيًا: سياق سورة الرحمن: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ".. لاحظوا سياق المثنى في السياق بالكامل المطابق للجنتين اللتين يتحدث عنهما الله -سبحانه وتعالى- فقد وردت "فيهما عينان تجريان"، ثم "فيهما من كل فاكهة زوجان" وفجأة ينتقل السياق إلى "فيهن قاصرات الطرف"، فعلام يعود ضمير الجمع المؤنث؟ أنا هنا لا أتحدث عن "قاصرات الطرف" بل أتحدث عن الضمير "فيهن"، مع مراعاة أن الكلام عن جنتين، وراعاهما الله -سبحانه وتعالى- حين ذكر أن فيهما عينين وأن فيهما من كل فاكهة زوجين.. فما الذي تعود عليه "فيهن"؟ بالنظر إلى السياق، فإن الأقرب (لغة وعقلاً) هو الفاكهة، فالفاكهة فيها من كل نوع زوجان، وأصحاب الجنة متكئون فيها على فرشهم، وجنى الجنتين يتدلى إليهم، وجنى الجنتين طبعًا من الفاكهة، وهذه الفاكهة فيهن قاصرات الطرف!

ولو كان المعنى كما ورد في تفاسير معنى قاصرات الطرف بأنهن النساء اللواتي يقصرن أطرافهن عن النظر إلى الرجال الآخرين، فإن صياغة المعنى على اسم المفعول لكانت أقرب، بحيث يليق بها "مقصورات الطرف"، لكن هذه الفاكهة تقصر طرف آكليها عن التطلع إلى غيرها من حلاوتها وعذوبتها!!

ولنكمل حتى يتضح المعنى أكثر باستكمال سياق سورة الرحمن، " وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)".

ومن دون الجنتين المذكورتين في مطلع السياق جنتان مختلفتان، "فيهما عينان" أيضًا، و"فيهما فاكهة" أيضًا، و"فيهن" صيغة الجمع المؤنث مرة أخرى بعد ذكر الفاكهة، و"خيرات حسان" ألا يستقيم هذا وصفًا للفاكهة التي هي "من خيرات الله"، وما بعدها يجرى وصفًا لها بالبديهة، فالخيرات الحسان حور مقصورات في الخيام، ولم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، والمؤمنون متكئون

على رفرف خضر وعبقري حسان، والاتكاء والتقابل والأغصان المتدلية مما يناسب الطعام بالطبع أكثر من ملاءمته لأي سياق جنسي!!!

ثالثًا: سياق سورة الطور: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)".

هل هناك أوضح من قوله تعالى: "كلوا واشربوا" دلالة على تأكيد المعنى الذي أرمي إليه؟ والسياق كله كاملاً يتحدث عن الأكل والشرب، ولو كانت (حور عين) مقصودة إلى النساء، لماذا لم يقل الله -سبحانه وتعالى-: كلوا واشربوا وانكحوا؟! إن حال المتقين في جنات النعيم أنهم فاكهون، والله يقول لهم كلوا واشربوا وأنتم متكئون على السرر، وعندكم من كل فاكهة (حور عين) زوجان (زوجناهم).. ولا أدري في الحقيقة كيف يقتصر الفهم والسياق هكذا على مجرد التفسير المباشر للفظ باعتبار أن التزويج يكون بنساء وبالتالي بكون كل هذا الكم الضخم عبر التراث الإسلامي من إسهاب وتمادٍ في فتح الخيال (الجنسي) لاختراع أوصاف ما أنزل الله بها من سلطان!!

رابعًا: سياق سورة الدخان "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)"..

إن كل السياقات مجمعة على الربط بين حور العين والفاكهة، وعلى الرغم من هذا لم يلتفت الكثيرون إلى هذا الربط، وربما استحسنوا توثيق العلاقة بين اللفظ وتفسيره بالنساء باعتباره ممتعًا أكثر بالنسبة إلى شريحة كبيرة من المسلمين تبحث عن السعادة في الجنس!

خامسًا: سياق سورة الواقعة: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)".

هو هو الاتكاء، وهي هي الأكواب والأباريق، وهي هي الفاكهة، وفي سياقها تأتي حور العين، ومعها لحم الطير، وهو هو سياق لذة الأكل والشرب بوضعية الاتكاء المناسبة والملائمة لكل هذه المغريات! حتى تشبيه حور العين

باللؤلؤ المكنون لا يقوم شاهدًا على اعتبارها نساء أو حتى يدفع إلى الاعتقاد باللذة الجنسية!

سادسًا: سياقات ذات صلة: وهذه السياقات رغم أنها لم تشتمل صراحة على لفظة (حور عين) فإنها متصلة في كتب التفسير كأدلة على توجيه المعنى إلى النساء، ولهذا نوردها هنا:

- يقول الله تعالى: "هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآَبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآَبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآَخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)"[1].

لا يزال السياق مصممًا على ألا يحيد بنا خارج ما نراه من توجيه المعنى إلى الفاكهة، والسياق كاشف لمضامينه بذكر الفاكهة و"رزقنا"، وحتى بالنسبة إلى سياق المقابلة في الكلام عن أهل النار، فلا تزال المقابلة كاشفة ومؤيدة لهذا التوجيه: "فليذوقوه" و"حميم" و"غساق"، وحتى الإشارة إلى المزاوجة موجودة في سياق المقابلة: "وآخر من شكله أزواج"، فهل الزواج هنا إلا

[1] من الآية ٤٩ إلى ٥٨ من سورة ص

الإقران، وهل النعيم والعذاب هنا إلا نعيم وعذاب المأكل والمشرب، وليس ذا صلة بأي حال بلذة أو شهوة الجنس؟!!

سياق آخر: "وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ"[1].

علامَ يعود الضمير في "أنشأناهن"؟ انظر إلى ما قبلها وفكر جيدًا.. هل على "أصحاب اليمين؟ لا، لا يستقيم المعنى.. هل على الطلح؟ لا، هل على الظل إذن أو الماء؟ بالقطع لا.. إذن فالفاكهة كثيرة ليست مقطوعة ولا ممنوعة، (والفرش التي يتكئون عليها مرفوعة) وقد أنشأها الله -سبحانه وتعالى- فجعلها بكرًا، وعُربًا، وأترابًا... والبكر في اللغة أول كل شيء، والعُرُب المتحببة، وقد اجتهد المفسرون في جمع وتدليل ربطها بالنساء جهدًا بالغًا ونقلوا كلامًا مؤكدًا للأمر ربطوه بالناقة ولغات العرب في مكة والمدينة وغيرهما من المدن... والأتراب المتساوية.. ورغم كل هذا فلا أجد ما يمنع إطلاقًا من أن تكون الفاكهة بكرًا لم يمسها إنس أو جان، ومتزينة في الأعين، ومتساوية في الحجم والمطلع وغير ذلك...

---

[1] الآيات من ٢٧ إلى ٣٩ من سورة الواقعة.

وأنقل فقط ما يعكس الارتباك في توجيه المعنى إلى النساء عند أئمة المفسرين الكبار، حتى المتأخرين منهم، فيقول فخر الدين الرازي: " وَفِي الْإِنْشَاءِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: الضَّمِيرُ فِي: أَنْشَأْناهُنَّ عَائِدٌ إِلَى مَنْ؟ فِيهِ ثلاثة أوجه أحدها: إِلَى حُورٌ عِينٌ [الواقعة: ٢٢] وَهُوَ بَعِيدٌ لِبُعْدِهِنَّ وَوُقُوعِهِنَّ فِي قِصَّةٍ أُخْرَى ثَانِيهَا: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفُرُشِ النِّسَاءُ وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَيْهِنَّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ [الْبَقَرَةِ: ١٨٧]، وَيُقَالُ لِلْجَارِيَةِ صَارَتْ فِرَاشًا وَإِذَا صَارَتْ فِرَاشًا رُفِعَ قَدْرُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَارِيَةٍ لَمْ تَصِرْ فِرَاشًا، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنَ الْأَوَّلِ لَكِنْ يَبْعُدُ ظَاهِرًا لِأَنَّ وَصْفَهَا بِالْمَرْفُوعَةِ يُنْبِئُ عَنْ خِلَافِ ذَلِكَ وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى مَعْلُومٍ دَلَّ عَلَيْهِ فُرُشٌ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ فِي الدُّنْيَا وَفِي مَوَاضِعَ مِنْ ذِكْرِ الْآخِرَةِ، أَنَّ فِي الْفُرُشِ حَظَايَا تَقْدِيرُهُ وَفِي فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ حَظَايَا مُنْشَآتٌ وَهُوَ مِثْلُ مَا ذُكِرَ فِي قوله تعالى: قاصِراتُ الطَّرْفِ [الرحمن: ٥٦] ومَقْصُوراتٌ [الرَّحْمَنِ: ٧٢] فَهُوَ تَعَالَى أَقَامَ الصِّفَةَ مُقَامَ الْمَوْصُوفِ وَلَمْ يَذْكُرْ نِسَاءَ الْآخِرَةِ بِلَفْظٍ حَقِيقِيٍّ أَصْلًا وَإِنَّمَا عَرَّفَهُنَّ بِأَوْصَافِهِنَّ وَلِبَاسِهِنَّ إِشَارَةً إِلَى صَوْنِهِنَّ وَتَخَدُّرِهِنَّ".

فواضح أن الرازي لا يعرف بالقطع إلى ماذا يعود الضمير في "أنشأناهن"، وحتى ما اطمأن إليه في النهاية كان أنه عائد إلى معلوم دل عليه "فُرُش" وهي الحظايا أو "المحظيات" بلغة العصر الأقرب لنا!! كل هذا لأن السياق وحده لا يكتمل للدلالة على النساء، ولا يمكن أن يستقيم على هذا المعنى فحسب!

سياق أخير: " إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)"[١].

لماذا أوردت سياق العذاب ونحن هنا نتحدث عن سياق حور العين؟ حتى يستبين سياق المقابلة، فالله -سبحانه وتعالى- يحدث أهل النار بعذابهم ويزيدهم عذابًا بذكر نعيم أهل الجنة، وهو ما ذكرته سابقًا تحت مسمى "سياق المقابلة"، فالسياق واضح تمامًا: هؤلاء يأكلون ما يأكلونه عذابًا، وهؤلاء يتنعمون بالأكل والشرب.. واللفظة التي يتخذونها دليلاً هنا على حور العين هي لفظة "كواعب"، والكاعب في اللغة هي المرأة التي بدأ ثديها في النهود، وليس هناك مانع من أن تكون اللفظة على مستوى التشبيه كما وصف الله -سبحانه وتعالى- الفاكهة بأنها "خيرات حسان"، فإذا كانت المرأة تكون كاعبًا إذا بدأت في البلوغ والتهيؤ للأنوثة، كذلك ينسحب

[١] الآيات من ٢١ إلى ٣٦ من سورة النبأ

الوصف على الفاكهة إذا بدأت تتهيأ للمأكل، وهي أتراب متساوية في الحجم!

أخيرًا: إن حصر الإسلام في الترويج للمتع الحسية هو ما فتح الباب أمام كثير من الاتهامات المباشرة له في هذا الباب، وأنا هنا تحديدًا أقولها بكل شجاعة: إن المسلمين هم من يتحملون تبعة الاتهامات في هذه النقطة، فكتبنا هي التي صدرت هذه الصورة، وهي التي لوت أعناق الآيات لتقول ما يريدون، ثم كانت اجتهاداتهم المباشرة تضيف إلى الصورة بعدًا إباحيًّا بعيدًا عن الإسلام تمامًا، لكنه أُلصق به نتيجة لقيمتهم ومكانتهم في الإسلام، فقصيدة وصف الجنة للإمام ابن القيم، والتي قد تكون ذات قيمة اجتماعية معاصرة وقتها، هذه القصيدة تحوي من الأوصاف ما ليس له علاقة بالإسلام، وإن كنت أرى أنها تدخل في دائرة الشعر وليس دائرة الفقه، فالإمام كتب قصيدة، نحكم عليها من الناحية الفنية والأدبية.. نقبلها أو نرفضها.. تعجبنا أو لا... المهم أنها ليست فتوى فقهية ولا رأيًا شرعيًا له قيمة دينية!!

لكن الأشخاص/ الشيوخ الذين لا يدركون متى يفرقون بين الأوجه المتعددة للعلماء نقلوا عنهم كل ما فعلوه وزعموا أنه هدي السلف الصالح الذي يجب أن نصدقه ونؤمن به ونعمل به!!

هذه الآراء هي التي فرضت عليهم كممثلين للإسلام أن يجيبوا عن أسئلة شديدة المنطقية، لكنهم عجزوا، فبدا الإسلام عاجزًا وليس هم، ومن هذا أشهر سؤال في هذا الأمر، وإجاباتهم المضحكة الثيرة للسخرية ردًّا عليه: ماذا

عن النساء في الجنة؟ وتكاد تُجمع كل الإجابات على أن الله لم يقل لنا ذلك، باعتبار حياء المرأة، أو يعددون لنا نعم الجنة العظيمة -اللهم اكتبها لنا جميعًا- ، وتبحث فيها عن نعمة واحدة ليست للرجال، فلا تجد!! ويقولون أيضًا: إن المرأة الكريمة لا تقبل تعدد الرجال عليها، وهذا تكريم لها..نعم، هذا حقيقي، ولكن ماذا عن قبول المرأة الكريمة لتعدد النساء على زوجها.. ألا ترفض المرأة الكريمة هذا أيضًا، أو على الأقل لا تحبه؟ ولو كان أمر كل امرأة بيدها لقصرت زوجها عليها وحدها فقط دون غيرها.. أليس هذا صحيحًا أيضًا؟!

هل ميز الله الرجال في الآخرة؟ يقول الله -سبحانه وتعالى-: " يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[1].. إذن، فالنور والبشرى والجنات والأنهار والخلود... كل ذلك مما وعده الله للمؤمنين والمؤمنات.. ولو كانت تفسيراتهم عن حور العين باعتبارها نساء، فلا بد أن تكون هذه الآيات السابق ذكرها موجهة للرجال، فيكون لأصحاب اليمين (الرجال) ما ذكره الله، فأين ما لصاحبات اليمين؟ وإذا كان الخطاب عامًّا للرجال والنساء، فلزم منه أن تكون النعم المذكورة صالحة للنوعين، أو على الأقل أن يذكر فيها شيئًا للرجال ومقابله للنساء.. وما دام هذا لم يتحقق، فاقرؤوا القرآن كما أنزله الله -سبحانه وتعالى-، لا كما أردتم أو تمنيتم!

---

[1] الآية ١٢ من سورة الحديد

الإسلام والرق

نبدأ هذا الجزء بأربعة أسئلة مركزية تنبني عليها القضية بالكامل: هل حرم الإسلام الاسترقاق؟ الإجابة لا! هل أمر الإسلام بالاسترقاق؟ الإجابة لا! بمنتهى الوضوح والقطعية في كافة نصوص القرآن الكريم لم يأمر الإسلام بالاسترقاق، ولم يحرمه.. ماذا فعل إذن؟ نَظَّمَ ما كان موجودًا قبله.. وحتى تكون البداية محددة وواضحة ودقيقة نسأل السؤال الأخير: إلامَ انحاز الإسلام؟ إلى المنح أم إلى الإباحة؟ وبكل وضوح: انحاز الإسلام إلى المنع! ولنعد قليلاً إلى الوراء، لنناقش الظاهرة في سياقها الطبيعي..

تابع معي هذه الاقتباسات: "تشكل هذه الطبقة (الطبقة الدنيا) شريحة كبيرة في المجتمع القبلي في العصر الجاهلي، وتضم العبيد السود والرقيق الأبيض والأسود.. أما العبيد السود فكانوا يُجلبون من سواحل إفريقيا الشرقية بعامة والحبشة بخاصة، وشكّلوا إحدى السلع التجارية الرائجة، ويبدو أن أعدادهم كانت كثيرة في اليمن ومكة ويثرب وغيرها من مناطق الجزيرة العربية، وبفعل توسع التجارة القرشية وتشعبها، وتوظيف المكيين جزءًا من أموالهم في استثمار الأراضي الزراعية وتربية الماشية في الطائف وغيرها، فقد جلب تجار مكة أعدادًا كبيرة من العبيد لاستغلالهم في أعمال الري الاصطناعي، والزراعة، والحرفة، ورعي الماشية، وحراسة القوافل التجارية، وتشغيلهم في الخدمة المنزلية، وهي إما أعمال صعبة ومرهقة تتطلب جهدًا مضنيًا وإما

أعمال مهينة يأنف العرب القيام بها.. ولعل ما يدل على كثرتهم المفرطة أن هند بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبدًا من عبيدها، كما أعتق أبو أُحيحة سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فأعتقهم..."[1]

"كانت الجزيرة العربية سوقًا نشطة لتجارة العبيد، ويمارس الرجال والنساء النخاسة، من ذلك أن عبد الله بن جدعان التيمي والمكي كان تاجرًا ثريًّا ونخاسًا له جوار يُساعِيْنَ (يمارسن البغاء) ويبيع أولادهن.

سكن العبيد أكواخًا حقيرة وعاشوا بضنك، نتيجة الحرمان والجوع، وقد جُرِّدوا من جميع الحقوق، وفُرضت عليهم واجبات مرهقة؛ سلبتهم إنسانيتهم، وباعدت بينهم وبين الحد الأدنى من الحياة الكريمة، فليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن سيده على أن يتزوج عبدة مثله"[2].

"كان سبي الرجال والنساء أمرًا شائعًا وأساسيًّا في العصر الجاهلي، خلال الغارات القبلية المتبادلة. ويحدث أحيانًا أن يفاجأ كل نساء الحي، وهم خلوف، فيؤخذن سبايا. وتقوم القبيلة أحيانًا ببيع أسراها، ففي الحرب التي دارت رحاها بين لحيان وخناعة، كانت الأولى تبيع كل من تأسره..."[3]

---

[1] تاريخ العرب قبل الإسلام- د. محمد سهيل قطوش- ص ١٧٢

[2] تاريخ العرب قبل الإسلام- د. محمد سهيل قطوش- ص ١٧٢

[3] تاريخ العرب قبل الإسلام- د. محمد سهيل قطوش- ص ١٧٣

"والمعروف أن الأسرى العرب كانوا قلة بالمقارنة مع الأرقاء الأجانب، بفعل ما كان يجري من تحريرهم من الأسر بحرب مضادة تشنها القبيلة التي ينتمي إليها الأسرى على القبيلة التي أسرتهم أو بتقديم الفدية، ويبقى في الأسر من لم يتمكن من فداء نفسه أو يتيسر عليه أن يدفع فديته.. وأما الشراء فمصدره بلاد فارس وبيزنطة، ففي الحروب التي كانت تدور بين الدولتين: الفارسية والبيزنطية، كان الطرفان يصيبان أسرى، فيبيعان ما يفيض عن حاجتهما من أسرى الطرف المغلوب، في الأسواق، أو ترسل هذه البضاعة البشرية على أيدي العملاء إلى أسواق الجزيرة العربية ليبيعها هناك"[1].

هذه إذن هي الظروف الاجتماعية التي دخلها الإسلام في شبه الجزيرة العربية.. مجتمع مستقر ينبني على طبقية راسخة ومستقرة، وأي استخدام للعنف والقرارات الفجائية في هذا الفضاء، فقد لا ينذر إلا بتساقط المجتمع.. ودعونا نسأل بعض الأسئلة بناء على افتراض أن الإسلام حَرَّمَ الرق كما حرم الخمر.. من سيقوم بالعمل في هذه الأعمال التي كانوا يقومون بها؟ أين سيعيش هؤلاء الرقيق؟ من أين سينفقون على أنفسهم؟ وكيف سيعيش الناس الذين يعتمدون عليهم اعتمادًا كاملاً؟ لقد كانت السمة المميزة والجالبة للفخر للمرأة فيما قبل الإسلام أنها نؤوم الضحى، وأنها سمينة، ولا تحسن واجبات البيت، إلى غير ذلك...

---

[1] تاريخ العرب قبل الإسلام- د. محمد سهيل قطوش- ص ١٧٣

كيف للإسلام إذن أن يهدم هذه الحياة بشكل فجائي أو حتى تدريجي على مستوى هذا المجتمع القائم بالفعل، خصوصًا وأن الإسلام لم يعتمد التشريعات المستقبلية.. لم يشرع الإسلام حكمًا واحدًا على أن يتم تنفيذه بعد فترة معينة! فماذا فعل الإسلام إذن؟

انحاز الإسلام إلى العلاج الروحي قبل أن ينحاز إلى التشريعات، فأخذ يشرع في المجمل علاقات الناس قبل أي شيء، فساوى بين الناس أمام الله أولاً: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)"[١]، وكذلك: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)"[٢]. والإسلام في بدايته الأولى قام على أكتاف وتضحيات هؤلاء العبيد، فكانوا أكثر من اتبعوه، وكان أبناء الطبقة العليا في المجتمع منصرفين عنه ومتآمرين ضده إلا ما ندر منهم، وما أسرع بدخول هؤلاء العبيد فيه إلا ما فهموه جيدًا من رسالته المساوية بين البشر والضاربة بتراث الفرقة الاجتماعية عرض الحائط إلى أبعد مدى.. وليس أدل على هذا من أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم

---

[١] الآية ١٣ من سورة الحجرات

[٢] الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

يكن له عبيد، ولم ينل منهم حتى فيما بعد، وكان من يقوم بخدمته يقوم به معتقدًا أن هذا تشريف له، كأنس بن مالك، ومن قبله زيد بن الحارثة الذي اختار محمدًا -صلى الله عليه وسلم- على أن يعود مع أهله لما حضروا يفتدونه!! هذا هو الإصلاح الروحي الذي وضعه الإسلام، فجعل من العبد - وإن ظل على عبوديته وطبقته الاجتماعية- أخًا في الدين والإنسانية: "كلكم لآدم وآدم من تراب"[1].

لكن هل اكتفى الإسلام بذلك؟ أيكون العلاج روحيًّا فقط؟ لا، فقد كان للتشريعات أثر كبير في التضييق على هذه الظاهرة.. ولكن قبل أن نتحدث عن التضييق نسأل: هل سمح الإسلام بالاسترقاق؟ بشكل أوضح: هل أدخل الإسلام عبيدًا جددًا إلى حظيرة الاسترقاق الموجودة بالفعل؟ الإجابة نعم، وقد تبدو الإجابة صادمة من شخص يبدو أنه يرى الإسلام مصيبًا ومثاليًّا في طرحه وعلاجه.. فكيف يهدف الإسلام إلى القضاء على الرق -فيما أزعم- في حين يسمح بالاسترقاق؟ إن الذين سمح الإسلام باسترقاقهم كانوا هم الجنود الذين واجههم الإسلام في المعارك، وكان الإسلام مخيرًا بين قتلهم واسترقاقهم، ذلك أن إطلاق سراحهم مباشرة لم يكن ممكنًا في عرف الحروب المباشرة وقتها، حتى لا يتجرأ الأعداء على المسلمين بعد أن يكونوا قد أمنوا على حياتهم إن وقعوا في الأسر، ولما كان الاسترقاق أحفظ للحياة

---

[1] من خطبة الوداع للنبي ﷺ

الإنسانية وهي المقصد الأول للتشريعات الإسلامية، انحاز الإسلام له، لمنحهم فرصة الحياة ولو في طبقة اجتماعية أقل، وهو على يقين من أن هذه الفترة لن تطول بسبب التشريعات التي وضعها..

وحتى تتبين الحقيقة، فإننا نعقد مقارنة موجزة بين مصادر الاسترقاق قبل الإسلام (وأقصد بالاسترقاق هنا تحديدًا تحويل صفة الشخص من حر إلى عبد)، ومصادره في الإسلام.. قبل الإسلام كانت الحروب والإغارات والصراعات الصغيرة بين القبائل وبعضها مصدرًا من مصادر الرق، أما في الإسلام فشرط الاسترقاق أن تكون الحرب بين الأمة الإسلامية وأمة كافرة حربًا شرعية يكون الدافع إليها إما رد العدوان أو حماية الدين، وفي حالة وقوع أسرى منهم، فإن المسلمين مخيرون بين إطلاق سراحهم دون مقابل أو قبول الفداء منهم، أو استرقاقهم...

كان من مصادر الاسترقاق قبل الإسلام أيضًا عدم الوفاء بالدين، وهو باطل في الإسلام.. ومنها كذلك ارتكاب بعض الجرائم كالقتل أو السرقة فيقضي عليه شيخ القبيلة بالرق، وهو باطل في الإسلام كذلك.. وأيضًا الخطف، كما حدث في استرقاق زيد بن الحارثة، وهو باطل في الإسلام أيضًا.. وإلى جانب هذا، فقد كانت بعض القبائل العربية تعتبر الإساءة إلى شيوخها وكبرائها من مبررات الاسترقاق، وهو ما لم يعد ممكنًا في وجود الإسلام... إلى غير ذلك من الأسباب التي كانت يمكن أن تحول الإنسان في لحظة من طبقة اجتماعية إلى طبقة أخرى وتسلبه حقوقه وحريته!!

إذن، فقد وحَّد الإسلام مصادر تحويل صفة الإنسان من حر إلى عبد في مصدر واحد.. وبالنسبة إلى التشريعات التي تخلص الإنسان من الرق، وتعيد إليه حريته من جديد، فقد وسعها الإسلام تمامًا، فلم تكن فيما قبله معتمدة إلا على رغبة السيد فحسب، إما ينذر نذرًا أو يبشره العبد ببشرى فيعتقه.. المهم أنه لم يكن هناك أي رقيب أو دافع لتحرير العبيد إلا رغبة وهوى السيد فحسب.. أما الإسلام، فإنه وضع تشريعات صارمة يجبر بها أتباعه على تحرير هؤلاء العبيد، وليس عبيده فحسب، بل متى توافرت له القدرة المالية فإن عليه أن يشتري عبدًا ويعتقه في بعض الحالات الدينية، مثل: إقرار ما سبق من آليات العتق، والتشجيع "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)"[١]، والكفارات: القتل الخطأ وقتل شخص من الذين بيننا وبينهم ميثاق فجعل إضافة إلى الفدية تحرير رقبة، والحنث باليمين، والظِّهار، والإفطار العمد في رمضان، والمكاتبة أو الاتفاق وهو أن يجعل العبد بينه وبين سيده اتفاقًا على مبلغ مالي معين إن سدده العبد فهو حر "وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ"[٢]، إلى جانب هذه التشريعات مسؤولية الدولة عن تحرير الرقيق من مال الدولة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

---

[١] الآيتان ١٢ و١٣ من سورة البلد

[٢] من الآية ٣٣ من سورة النور

الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)"[١]، وأم الولد كذلك تصبح حرة تلقائيًّا حتى لو لم يحررها سيدها ويكون الابن ابنًا شرعيًّا لوالده...

كذلك وضع الإسلام حدًّا لهذه المشكلة تدريجيًّا، ولكنه لم يحرّم الاسترقاق لأنه قد يحدث في زمن ما أن تعود الظروف إلى سابق عهدها فيكون الاسترقاق حافظًا للحياة الإنسانية، فماذا سيفعل المسلمون إن كانوا في حرب شرعية تنطبق عليها ظروف الحروب التي خاضها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ هذا وإن كان بعيدًا هذه الأيام، لكن الله وحده يعلم متى سيرث الأرض ومن عليها، وهل سيحدث هذا أم لا، فسيظل هذا التشريع صونًا للنفس الإنسانية من القتل، ولهذا لم يحرم الإسلام -فيما أفهم- الاسترقاق، وإن كان لا يمكن لأحد أن يدعي أن الإسلام لم يحاربه ويسعَ إلى القضاء عليه.

وماذا عن ملك اليمين إذن؟ أولاً ملك اليمين تنطبق على الذَّكَر كما تنطبق على الأنثى "وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ"[٢]، وبالنسبة إلى أحكام ملك اليمين في الفقه الإسلامي، وقد لا يعرف المشككون في الإسلام أية أحكام خاصة حول ملك اليمين سوى أنها إباحة الممارسة

---

[١] الآية ٦٠ من سورة التوبة

[٢] من الآية ٣٣ من سورة النور

الجنسية للسيد فحسب، لكن الإسلام لم يترك الأمر مطلقًا هكذا دون ضوابط، فالإسلام أباح زواج الرجل من إمائه بالفعل، ليس هذا خطأ مطبعيًّا، وتعال ننظر في القرآن لنرى كيف تعامل مع ملك اليمين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)"[١].. لماذا يستأذنّ –حين يتخفف الرجل من ملابسه– إذا كُنَّ على علاقة جنسية مع سيدهنّ؟ وانظر إلى التشريع الواضح القاطع الصريح الذي لا أفهم لِمَ تثور كل هذه الفتاوى والأقاويل بعده: "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)"[٢].. فالحر الذي لا يستطيع أن يتزوج امرأة حرة مثله، فله أن يتزوج من ملك يمينه على أن

---

[١] الآية ٥٨ من سورة النور

[٢] الآية ٢٥ من سورة النساء

تكون مؤمنة وذات خلق، بإذن أهلها، وبعد أن يؤتيها أجرها، ولكنها أيضًا ستبقى ملك يمين، بمعنى أنه لو طلقها فإنه لا تزال من إمائه، وإن أنجبت فستضمن حريتها حتى ولو بعد موته، ولهذا كان لها حكم خاص في الإتيان بالفاحشة وهو نصف حد الحرة!!

لو كانت ملك اليمين تحت تصرف الرجل جنسيًّا؛ يفعل بها ما يشاء، فلم يكون تشريع النكاح إذن؟

وقد تكون الآية التي حملت اللبس إلى أفهام الكثيرين هي قوله تعالى: "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)"[1].. وبالفعل هما نوعان: الزوجة وملك اليمين، فالزوجة علاقتها بالرجل مقيدة بالزواج، وبانتهائه تنتهى العلاقة تمامًا، أما ملك اليمين فتظل على رقها حتى وهي زوجة، وعلى هذا جاء ذكرها في هذه الآيات منفردة عن العلاقة الزوجية الطبيعية.

وبالنظر إلى آية أخيرة تبدو مشكلة في هذا الأمر أيضًا، وهي آية "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ..." التي ذكر الله فيها المحرمات من النساء في الزواج قال -سبحانه وتعالى-: "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا

---

[1] الآيات ٥ و٦ و٧ من سورة المؤمنون

اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)"[1]، فقد استثنى الله ملك اليمين من تحريم المحصنات، ومن المعلوم بداهة أن المرأة المتزوجة محرمة على غير زوجها، وقد ذكر الله هنا المحصنات في سياق المحرمات، واستثنى ملك اليمين باعتبار أن "استرقاقها" أسقط زواجها السابق، فإذا كانت متزوجة قبل أن تقع في الرق، فقد خرجت من زواجها السابق بعد أن دخلت في الرق، وعلى هذا فقد استثناها الله -سبحانه وتعالى- من التحريم هنا بهذا السبب، وهذه الآية أيضًا تأكيد على ما أرمي إليه باعتبار آخر: هل سياق التحريم في هذه الآيات كان تحريم زواج أم تحريم مباشرة جنسية؟ وللتوضيح أقول: إن كل امرأة في الدنيا هي محرمة على كل رجل إلا بزواج، وبما أن الله -سبحانه وتعالى- عدد في سياق الآيات الكريمة الحالات التي تحرم فيها المرأة، فإنما يكون التحريم هنا تحريم زواج، ومعنى استثناء ملك اليمين من سياق التحريم هنا فيكون الاستثناء من التحريم الزواج وليس المباشرة الجنسية، فلو كانت ملك اليمين تحت إمرة سيدها الجنسية مباشرة دون زواج، فلم يكن من المنطقي ذكرها في هذا السياق على الإطلاق، بدليل استكمال السياق بتحليل ما وراء ذلك، بعد أن تأخذ المرأة أجرها/ مهرها فريضة، وهذا في إطار الإحصان، ثم الآية التالية للآية السابقة: "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ

---

[1] الآية ٢٤ من سورة النساء

الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ"[1].. أليس واضحًا أنه سياق نكاح/ زواج وليس سياق معاشرة جنسية؟ فأين الإباحية التي يروج لها الإسلام؟ وأين مخاطبة الغرائز التي يروج لها الإسلام بين أتباعه؟!!

سبحانك اللهم وتعاليت عما يقولون علوًّا كبيرًا!!!!

[1] من الآية ٢٥ من سورة النساء

obeikan.com

خاتمة

لم يكن الإسلام بدعًا من بين الأديان السماوية، فالثلاثة واجهت هجومًا عنيفًا طوال مسيرتها، والثلاثة وقعت بين خصمين رئيسيين كبيرين: خصم داخلي؛ ينتمي إليه، وتُحسب تصرفاته عليه، وينبني هجوم أعدائه عليه من خلاله... وخصم خارجي؛ يسيء النية والقصد والبحث أحيانًا، وأحيانًا يتلقف من الخصم الأول هداياه ويبني عليها هجومه!

لقد سعيت من خلال هذه الأفكار وهذا البحث أن أصل إلى الحقيقة، ويعلم الله أني لم أهدف في أي لحظة من لحظات الكتابة أو التفكير إلى دغدغة المشاعر أو كسب التأييد، ولم أفكر سوى في الله طرفة عين، ولم أقصد من ورائه إلا هو، وإلا ما آمنت به...

ولا أزعم أن ما ذكرته هو الصواب، أو أنه مقصد الله، فالله تعالى أعلم بمقصده، ولكني كتبت ما اعتقدت أنه صواب، وما فهمته من مراد الله -سبحانه وتعالى-، وهناك الكثير من الإشكاليات التي تحتاج إلى بحث، لم يتسع الكتاب للحديث فيها، وأملي في الله أن يمنحني الفهم والقدرة والطاقة والقبول لأغطيها في صفحات أخرى، بفضله وكرمه.

وإلى الذين أختلف معهم أقول: يقول الله -سبحانه وتعالى-: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا

تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)"[١]..

فاختلافنا ليس بدعًا في تاريخ الفكر الإنساني، بل إن اختلافنا ينتج منا أقوى ما فينا، فلولاكم ولولا أسئلتكم وشكوكم وربما اتهاماتكم ما كنت بدأت هذا البحث ولا فكرت فيه.. وربما يكون ما كتبتُ نافذة لاستكمال بحثكم أو إعادة النظر في بحث كنتم تظنون أنه أُغلق.. وأتوقع منكم جديدًا لأعيد البحث فيه بناء على بحثكم... وهكذا ينتصر العقل، الذي هو منحة الله العظمى للإنسانية، أو العقل الذي تعتبرونه جديرًا بالألوهية -بحسب فكركم-، المهم أن نستمر في البحث وأن نؤمن بشيء وأن نشك بهدف البحث عن اليقين، وليس هناك ما يحول بيننا وبين الحقيقة إلا أن نقرر أن نسعى إليها..

اللهم صلِّ على محمد وبارك بركة لا تحصى، واشهد أني أحبه وأصدق أنه بلغ رسالتك وأدى أمانتك، وأنا أبحث فيها لأستخرجها على الوجه الذي ترضاه يا رب العالمين..

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

أيمن مسعود

---

[١] الآية ٨ من سورة المائدة

الفهرس

الموضوع		الصفحة
تمهيد		
لي وللمسلمين: ربي الله		
لي وللمسلمين: يا أيها...		
القرآن وما دونه		
لغير المسلمين: تمهيد		
لماذا نحمد الله على نعمة الإسلام؟		
هل القرآن كلام الله؟		
الإسلام والإرهاب		
الإسلام والجنس		
الإسلام والرق		
خاتمة		

obeikan.com